سلسلة دراسات الفكر المعاصر 2

الإلْحادُ المُعاصِرُ
على طاوِلةِ التَّشْرِيح

■ الشيخ سامر توفيق عجمي

مركز براثا للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research

■ **الإلحادُ المعاصرُ على طاولة التَّشريح**
سامر توفيق عجمي

سلسلة دراسات الفكر المعاصر 2

الإلحادُ المعاصرُ
على طاولة التَّشريح

سامر توفيق عجمي

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: 2024 م- 1445هـ
◆ عدد الصفحات: 160 صفحة
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

الفهرس

9 | مقدمة

الفصل الأول | 13

مفهوم الإلحاد: دراسة تحليليّة

المبحث الأول

14 | ما هو الإلحاد؟

المبحث الثاني

23 | المقدِّمات المنطقيَّة لتحليل مفهوم الإلحاد

المبحث الثالث

35 | المواقف الفلسفيّة المتعدّدة من سؤال: هل الله موجود؟

الفصل الثاني | 47

هل يمكن وجود الملحد الواقعيّ؟

المبحث الأول

48 | هل يمكن إثبات الإلحاد منطقياً؟

المبحث الثاني

55 | هل يمكن إثباتُ الإلحاد الواقعيّ علمياً؟

المبحث الثالث
هل يمكن وجودُ الملحد الواقعي فطرياً؟
وهل يمكن ذلك في ضوء نصوص الوحي الإلهي؟ 70

الفصل الثالث | 83
نظريَّات الملحدين في تفسير الإيمان بالله, تعالى

المبحث الأول
الإيمان باللّه ينشأ من الجهل بالظواهر الطبيعية 84

المبحث الثاني
الإيمان باللّه يتعارض مع التقّدم والتطوّر 91

المبحث الثالث
الإيمان باللّه وليد "فتنة الخوف" 104

المبحث الرابع
الإيمان باللّه وليد الصراع بين الطبقات الاجتماعيّة 111

الفصل الرابع | 117
نموذجان من الملحدين المعاصرين
(ريتشارد دوكنز، وستيفن هوكنغ)

المبحث الأول
118 | **عالم الأحياء التطوّريّة ريتشارد دوكنز**

المبحث الثاني
127 | **عالم الفيزياء الكونيّة ستيفن هوكنغ**

المبحث الثالث
137 | **من صمَّم المصمّم العظيم؟ أو من خلق اللّه؟**

المبحث الرابع
144 | **الدليل العلميّ على وجود اللّه، تعالى**

154 | **المصادر والمراجع**

● مقدمة:

كلُّ شـخص منّا يلاحظ أنّ هناك نقاشًـا وجدلاً بين جيل الشّباب والنخب الفكريّة حول نسـبة انتشار الإلحاد في العالم العربيّ والإسلاميّ، فبعضهم يضخّـم ظاهرة الإلحاد إلى درجة يُشـعرنا بأنّها منتشرة بكثرة بين الشـباب وفي كلّ بيـت، وبعضهم الآخر يُقلِّل من شـأنها وخطورتها، ويدسُّ رأسـه في الـتراب، فـلا يريـد أن يُبـصر الحقائق ويعـترف بالوقائـع، وبين هذا وذاك، خـير الأمور الوسـط، أي الاعتراف بوجود اتّجـاه نحو الإلحاد في مجتمعاتنا العربيّة والإسـلاميّة، بغض النظر عن مقدار نسـبته رياضيًّا، لأنّ تحديد النسب على نحوٍ دقيق أو تقريبيّ، يحتاج أوّلاً إلى دراسات ميدانيّة واسـتطلاعات رأي وإحصاءات. وثانيًا: يصعـب الحصول في مجتمعاتنا العربيّة والإسـلاميّة عـلى أرقام دقيقة حول الإلحاد، وذلـك لعوامل عدّة، أهمّها: كتمان الاتّجاه نحو الإلحاد عند بعض الشـباب، نتيجة تقاليد البيئة العائليّـة وأعراف المجتمع، وغيرها من العوامـل التي تدفعهم نحو إخفاء

حقيقة موقفهم.
لكن، القدر المتيقّن، أنّ بعض الشباب قد تأثّر بالاتّجاه الإلحاديّ، على مستويين:
المستوى الأوّل: التفكير الإلحاديّ، أي أنّه وقع تحت قصف الشّبهات التي يطرحها الملحدون، ممّا أثَّر في طريقة تفكيره تجاه القضايا الدينيّة، فصار مُنكِرًا لوجود الله, تعالى، أو مُشكّكًا فيه، أو في الحدّ الأدنى يُناقش قضايا الوحيّ، أو النبوة، أو المعاد، أو المهدويّة ... إلخ.
المستوى الثاني: السلوك الإلحاديّ، كثير من الشباب, وإن لم يكن ملحدًا على مستوى التفكير والعقيدة، إلاّ أنّه كذلك سلوكيًّا وعمليًّا، حيث يبتعد عن الدِّين في الممارسة، فيترك الصلاة أو الصوم، ولا يبالي بالأحكام الشرعيّة، بل يسخر منها، ويستهزئ بها، مناقشًا في جدواها ومنفعتها، كما في السخرية من قضيّة الحجاب أو الاستهزاء برمي الجمار في الحجّ أو... ولكن هل المستوى الثاني هذا هو مؤشِّر لانتشار الإلحاد؟ الجواب: قطعًا لا، لأنّ الإلحاد ليس بمعنى ترك التديّن في مقام العمل، وإن كان مُنطلقًا من الشّبهات والإشكاليّات، بل الإلحاد اعتقاد بعدم وجود الله, تعالى، وإنكار أن يكون هناك خالق لهذا الكون المنظَّم المُدهِش, وصانع لهذا العالَم المُتقَن العجيب.
وبالتجربة والملاحظة، إنّ غالب الشباب الّذين لا يلتزمون بالأحكام الشرعيّة عمليًّا، ولا يبالون بالتعاليم والقيم الدينيّة، هم معتقدون بوجود الله, تعالى، بل وبالإسلام بالمعنى العام، ولكن يتأثّرون بالشُّبهات والأطروحات والأفكار الإلحاديّة.

إنّ حركة الإلحاد ليست حديثة، بل هي ممتدة وعميقة في التاريخ، وهذا أمر طبيعيّ في حركة الصراع بين الحقّ والباطل، لكنها اليوم أشدّ حضورًا وأكثر فتكًا ، فالشاب اليوم، يعيش تساؤلات عقديَّة عميقة، نتيجة الانفتاح على الفضاء المجازيّ، وما يتعرّض له في تلك الساحة من قصف العقل بالمواد المغلوطة والشّبهات الفاسدة.

والجدير بالذكر، أنّه من طالع كتب الملحدين المعاصرين لا يعثر على جديد، بل هي الدعاوى نفسها التي طرحها الملحدون منذ قديم الزمان، ولكن في كلّ زمان يلبس الإلحاد لَبوسًا خاصًّا، فالإلحاد الجديد يحاول أن يلبس رؤيته ثوب العلميّة، بالاستناد الكاذب على معطيات العلوم الطبيعية؛ كالفيزياء كتجربة ستيفن هوكينغ والبيولوجيا كأطروحات ريتشارد دوكنز...

مضافًا إلى خطاب العدائية في البرامج التلفزيونية والإذاعية، والتعليميّة، والحواريّة، والوثائقيّة، والمسلسلات، والأفلام، والأغاني، والفيديو كليبات، واللوحات الدعائية في الشوارع المكتوب عليها عبارات مثل: «الأديان قصص خرافيّة»، «ليس ثمة إله»، «الملايين بخير دون الله»، «لا تؤمن بالله»،... أو الباصات كحملة «باص الإلحاد» في بريطانيا...، وكذلك القمصان والقبعات والملابس المكتوب عليها عبارات، مثل: «أنا ملحد»، «قُدْ سيارتك بعناية ليس هناك إله»... إلخ، التي تتمحور حول الفكر الإلحاديّ. فضلاً عن تأسيس مؤسّسات لدعم التحالف الدوليّ للملحدين، ولها اشتراكات ماليّة، وكذلك شبكات كثيرة على الشابكة(الأنترنت), ومنصّات على مواقع التواصل الاجتماعيّ.

وقد أثّرت هذه الموجات بطريقة أو أخرى في شبابنا وفتياتنا في المجتمعات العربيــة والإســلامية، وذلك لما ذكرنــاه؛ لأنّ العالم أصبح فضــاءً مفتوحًا أمام الجميع وســقطت الحواجز الجَغرافيّة أمام المشــهد الثقافي الكونيّ، فأصبحت هذه الأفكار في متناول الجميع.

مســؤوليتنا جميًعا، أن نســاهم في مواجهة هذه التيــارات المنحرفة، وننبّه الشــباب منها، ونهاجم هذه الأفكار الضالّة الفاســدة، وندافع عن عقديتنا الإلهيَّة، بالحجج والأدلة والشواهد والقرائن والبراهين.

وفي هــذا الكتاب، سنســلّط الضوء عــلى الإلحاد، ونضعــه على مشرحة البحــث، باعتبار كونه -من وجهة نظرنا- كائنًا ميّتًا، عجلاً جســدًا، ولذلك ســنقوم بتشريحه، وتحليله، لنكتشــف أنّه لا روح فيه ولا حياة، لا يصمد أمام المنطق والعقل والعلم والفطرة.

الفصل الأوّل:

مفهوم الإلحاد: دراسة تحليليّة

المبحث الأوّل:

ما هو الإلحاد؟

● أوّلًا: معنى الإلحاد في اللغة والاصطلاح:

الإلحـاد في اللغة العربيّة مأخوذ من الفعل أَلْحَـدَ أي مَالَ وعَدَل، يقول ابـن فارس: «اللام والحاء والدّال أصلٌ يدلُّ على ميلٍ عن اسـتقامةٍ. يُقال: ألْحَدَ الرّجلُ، إذ مال عن طريقة الحقِّ والإيمان»[1].

ويقال: أَلْحَـدَ في دين الله، أَي حاد عنه وعَدَلَ[2]. ولذلك يقال: «اللَّحْد واللُّحْد: للشّـقّ الذي يكون في جانب القبر موضـع الميّت؛ لأنه قد أُمِيل عن وسَط إلى جانبه»[3].

فلغةً، يمكن القول: إنّ الإلحاد هو انحراف الإنسـان عن طريق الإيمان باللـه, تعالى، فهـو أعمّ من أن يكون هـذا الانحراف فكريًّـا أو عاطفيًّا أو عمليًّا.

أمّـا الإلحاد اصطلاحًـا، فهو -في الجملـة- بمعنى: إنـكار وجود الله, تعالى، أو بعبارة أدقّ، هو: الاعتقاد بعدم وجود الله, تعالى.

والإلحاد بهذا المعنى، ليس مجرّد حالة معرفيّة، تتعلّق بالإدراك الذهني، بـل تتجاوز المعرفة العقليّة إلى عقد القلب على مضمون قضية: «الله غير

1 - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، (ل ح د).
2 - الجوهري، الصحاح- تاج اللغة وصحاح العربية،(ل ح د).
3 - ابن منظور، لسان العرب، (ل ح د).

موجـود»، أو «الله معـدوم»، فالحالة المعرفيّة لإنكار وجـود الله, تعالى, يلازمهـا عقد القلب على ذلك عادةً، بأن يكتب الإنسـان بقلم العقل على صفحات القلب: أنا ملحد، ويدين بذلك في حياته لفظيًّا وسلوكيًّا.

ثانيًا: مفردة الإلحاد في القرآن الكريم:

تبـيّن في البحـث اللغويّ، أنّه لم يكن لفظ «الإلحـاد» عند العرب عَلَمًا عـلى خصوص الّذيـن ينكرون وجود اللـه تعالى. نعم، يمكن استشـعار إطلاق هذا اللفظ في القرآن الكريم بما يشمل الملحدين بهذا المعنى أيضًا من بـاب التطبيق، أي من باب كون الّذي يُنكـر وجود الله تعالى هو أحد مصاديق مفردة «إلحاد» في اللغة العربيّة.

قـال تعـالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِـدُونَ فِي آيَاتِنَا**﴾[1]، فيظهـر أنّ المقصود بالآيات في الآية يشـمل الآيات التكوينيّة الدّالة عليه, تعالى، بالإضافة إلى شموله الآيات الوحيانيّة والنبويّة.

ويقول تعالى: ﴿**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ**﴾[2]، إذْ يشمل الإلحاد في أسمائه تعالى: الزنادقة والدُّهريّين والملحدين بالمعنى المعاصر.

يقول العلامة الطباطبائيّ في تفسـير الآية: «... الناس من منتحلهم وزنديقهم وعالمهـم وجاهلهم لا يختلفون بحسـب فطرتهم وباطـن سريرتهم في أنّ هذا العالم المشهود، مُتّكئ على حقيقة هي المُقوِّمة لأعيان أجزائها الناظمة نظامها...

1 - سورة فصلت، الآية: 40.
2 - سورة الأعراف، الآية: 180.

والنـاس في هذا الموقـف -على ما لهم من الاتّفـاق على أصل الذات- ثلاثة أصناف:

1. صنف يسـمّونه بما لا يشـتمل من المعنى إلّا على ما يليق أن يُنسب إلى ساحته من الصفات المُبيِّنة للكمال، أو النافية لكلِّ نقص وشَيْن.

2. وصنف يلحدون في أسمائه، ويعدلون بالصّفات الخاصة به إلى غيره كالماديِّين والدُّهريِّين الذين ينسـبون الخلق والإحيـاء والرزق وغير ذلك إلى المادة أو الدهر...

3. وصنف يؤمنون به, تعالى, غير أنّهم يلحدون في أسمائه، فيثبتون له من صفات النقص ما هو منزه عنه، كالاعتقاد بأنّ له جسمًا، وأنّ له مكانًا...»[1].

فالملحد مؤمن بأنّ هذا العالم المشهود، مُتّكئ على حقيقة هي المُقوِّمة لأعيان أجزائها الناظمة نظامها، ولكنه يعتقد أنّ هذه الحقيقة المقوِّمة لنظام العالم هـي: «القوانين الكونيّـة الفيزيائيّـة»، أو «المصادفةالمصادفة»، أو «الحظ»، أو «المادة والطاقة»... إلخ، وبذلك يصدق عليه قرآنيًّا مصطلح: «الإلحاد في الأسماء».

ولعلّ التعبير التراثي المرادف للإلحاد في اللغة المعاصرة هو: «الدّهرية» أو الزندقـة، فالدّهريّة عنـد العرب هم المنكرون للمبـدأ والمعاد، وحمل بعضهـم قوله تعـالى: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَـا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾[2] على هذا المعنى[3].

1 - الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج8، ص341.
2 - سورة الجاثية، الآية: 24.
3 - انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، ص235.

ثالثًا: استعمالات مفردة «الإلحاد» في الثقافة المعاصرة:

لعـلّ الإلحاد في صورته القديمة كان بسـيطًا، بمعنى أنّه عبارة عن إنكار وجود الله, تعالى، وهذا هو القدر المشـترك الجامـع بين الملحدين. ولذا يقول عبد الكريم الشهرستاني: «أمّا تعطيل العالم عن الصانع العالِم القادر الحكيم، فلست أراها مقالة لأحد، ولا أعرف عليه صاحب مقالة، إلّا ما نُقل عن شرذمة قليلة من الدّهريّة، أنهم قالوا: العالم كان في الأزل أجزاء مبثوثة، تتحرك على غير استقامة، واصطكت اتفاقًا، فحصل عنها العالم على نحوه الذي تراه عليه، ودارت الأكوار وكرّت الأدوار وحدثت المركّبات...»[1].

ولكـن في العصـور الوسـطى ومـا تلاهـا، بعد الـصراع بين الكنيسـة وبعض النخب الفكريّة والعلميّة في أوروبا، وولادة تيارات فلسـفيّة كثيرة، لم يعد لمفردة «الإلحاد»، اسـتخدامٌ واحدٌ، بل توسّع اسـتعمالها وأصبح أكثر تعقيدًا، إلى درجة أنّـه كثيراً مـا قد يقع بعض الشـباب في الخلط بين المصطلحـات، فيعتقدون أنّ الإلحاد يشـمل كلّ هذه التيارات التي سـنأتي على ذكرها لاحقًا بالتفصيل، فهناك تداخل بين المصطلحات التالية: الإلحاد، اللاأدريّة، اللادينيّة، الربوبيّة، العَلمانيّة، اللاأباليّة أو اللااكتراثيّة... إلخ. ممّا قد يولّد التباسًا في ذهن كثير من الشّباب.

ونقف في هذه الفقرة مع مفردة «الإلحاد» فقط، لنشـير إلى بعض أنواعه عـلى نحوٍ مختـصر، ونؤجّل البحث عنهـا على نحوٍ تحليـليّ معمّق إلى المباحث اللاحقة.

الصنـف الأوّل من الإلحاد، هـو الإلحاد الصريح والمطلق والشـامل،

1 - الشهرستانيّ، نهاية الأقدام في علم الكلام، ص75.

وهــو الاعتقاد بعدم وجود الله, تعالى، أي أنّ المُلحد هو الشــخص الذي يعتقد بصدق مضمون القضية التالية: «الله غير موجود» أو « الله معدوم». وهو الإلحاد الأصوليّ الراديكاليّ المتشــدّد في محاربة الألوهية والأديان الســماويّة والوحــي والنبوة و... وهــذا هو الإلحاد الــذي وصفه الكاتب المصريّ عبد الرحمن بــدويّ بأنّه الإلحاد الغربي بنزعته الديناميكيّة الذي عبرّ عنه نيتشه حين قال: «لقد مات الله»[1].

والصنــف الثاني من الملحدين، هو الإلحــاد المتزلزل والمتأرجح، وهو عدم الاعتقاد بوجود الله, تعالى، لا الاعتقاد بعدم وجود الله, تعالى، وهناك فرق كبير بين هذين الصنفين، سيظهر في المباحث اللاحقة، ولكن باختصار الإلحاد في هذا الصنف الثاني يكون المُلحد فيه متأرجحًا ومتردّدًا، فهو لم يحســم موقفه بعد من ســؤال: هل الله موجود؟ لأنّه لا يملك جوابًا قاطعًا على النفي ولا الإثبات، وهو الذي يُصطلح عليه أيضًا: «اللاأدريّة».

ويعــدُّ الملحــدون مــن الصنــف الأوّل أنّ إلحادهم إلحاد قــويّ ثابت وإيجابيّ، بينما هذا النوع من الإلحاد هو إلحاد ضعيف ومتزلزل وسلبيّ.

وهنــاك الإلحــاد اللااكــتراثي، وهو ذلك الشــخص الــذي يعيش حالة اللااكتراث تجاه الأســئلة المصيريّــة الكبرى عن الوجــود والكون والله، فمثل هذا الشــخص لا يكترث ولا يهتمّ بالبحث عن وجود إله أم لا؟ ولا يعنيه الموضوع لا من قريب ولا بعيد.

وهناك مصطلح «الإلحــاد الجديد»، الذي يراد به الملحــدون الراديكاليّون

1 - بدوي، تاريخ الإلحاد في الإسلام، ص7.

المتشـدّدون المعـاصرون، ويبـدو أنّ أول مـن وضعه هو جـيري وولف في مقالـة نشرها سـنة 2006م، في مجلة «وايرد» البريطانية، بعنوان: «كنيسـة غير المؤمنـين»، والعنوان الفرعيّ لها: فرقة من الأشـقاء فكريًّا يقيمون حملة ضد الإيمان بالله، هل نجحوا في كسـب المتحوّلين؟ أم اقتصروا على التبشير بين جمهورهـم؟ قاصدًا به طبيعة الأفكار والاتجاهـات التي يعتنقها مجموعة من الملحدين المعاصرين، القائمة على أساس التشدّد وعد التسامح مع ما يسمونه الخرافات والأسـاطير واللاعقلانيّة الموجودة في الأديان، منهم: عالم الأحياء ريتشـارد داوكنـز، صاحـب كتاب «وهم الإله»، وسـام هاريـس المتخصّص في مجـال علوم الأعصـاب، صاحب كتاب نهاية الإيمـان :THE END OF FAITH"، ودانييـل دينيـت، صاحـب كتاب كـسر السـحر "BREAKING THE SPELL"، الذي قدّم فيه تفسـيراً دارونيًّا ماديًّا لظهور الحياة، وكريستوفر هيتشنز، صاحب كتاب «الله ليس عظيمًا، كيف يسمِّم الدين كلّ شيء» "god is not GREAT…" الـذي حاول فيه ربط الـشرور كافة بالأديان، متّهمًا إياها بأنّها عنيفة، لا عقلانيّة، غير متسامحة، غارقة في الجهل، معادية لحريّة التعبير عن الرأي، تحتقر المرأة، تقهر الأطفال، عنصريّة، متعصّبة…

يقول ريتشـارد دوكنز -بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر-: «لنتوقف جميعًا عن هذا التصنّع المقيت في إبداء الاحترام للأديان. ويقول: إن ملء عالَـمٍ بالدِّين أو بالأديـان كالأديان الإبراهيميّة، هو تمامًا كملْء الشـوارع بالمسدسات المحشوة بالرصاص[1].

1 - العجيري، ميليشيا الإلحاد- مدخل لفهم الإلحاد الجديد، ص17-18.

وقـد تعدّى الأمر بخطـاب العدائية والكراهية إلى تأليف كتب لتبسـيط المفاهيم الإلحاديّة للأطفال أيضًا، كما فعلت أناكا هارس وهي زوجة سام هـارس في كتابهـا «ما الذي تؤمن بـه؟» "What Do You Believe?"، أو كتاب «شـجرة عائلتنا: قصة تطـوّر» "Our Family Tree". وكذلك كتاب ريشـتارد دوكنز «سـحر الحقيقة»، "The magic of Reality"، الذي ألّفه للأطفـال والمراهقـين... وكثير مـن الكتب التي تدور حـول ذلك تحت عناويـن مختلفة، مثل: «تربية الأطفال بعيدًا عن الإيمان»، «دليل إلى خَلْق الملاحدة»، «تنشئة الأحرار فكريًّا»... إلخ.

رابعًا: الإلحاد الواقعيّ والإلحاد اللفظي:

هناك صنف من الإلحاد يمكن -من باب تعدد الألفاظ لشمول المعاني- أن نُطلِق عليه: الإلحاد الكاذب، أو الإلحاد المزيّف، أو الإلحاد الوهميّ، أو إلحـاد الموضة... إلخ، فبعض الشـباب ينكر وجود الله, تعالى, لا عن قناعـة ذاتيّـة بالإلحاد، وهـو الذي يصدق عليـه قوله تعـالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْـتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُـهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾[1]، وإنمّـا يكون دافعه إلى ذلك هـو إرادة التفرّد والظهور بصـورة متميّزة، أو التمرّد عـلى عقائد المجتمع وكراهيـة التديّـن، أو التهرّب من المسـؤوليّات التي تفرضهـا عليه تبعيّته للدِّين لأنّه يريد أن يعيش الترف واللّذة، أو محاباةً لبعض الأصدقاء، أو من أجل التكسّـب والارتزاق فيتّخذ الإلحاد وسـيلة لتحقيق الأهداف الماديّة

1- سورة النمل، الآية: 14.

وجمـع المال، أو نتيجة ضعف القدرة على التعامل مع أزمة عاطفيّة حادّة، فيشـعر بالسـخط تجاه الله, تعالى, لأنّه -من وجهة نظره- تخلّى عنه... أو غيرها من الدوافـع والعوامل، ويكون إنكاره لوجـود الله, تعالى, فقط في اللفظ واللسـان من دون القلب والجنان، أي أنّ إنكاره لوجود الله, تعالى, غـير منبثق مـن المعرفة العقليّة المُسـتدَلة بل حتى التقليديّـة أو التصديق القلبيّ، فلو شُـقَّ عن عقله وقلبه لعُثِر على الاعتقـاد بالله, تعالى, مجبولاً في خلايـا دماغه وشرايين قلبـه، ولكنّه يتصرَّف كملحـد في الحياة عامّة، وإن كان أحيانًـا يُظهِـر إيمانـه بالله, تعالى, بين حـين وآخر، خصوصًا في تلك المواقف التي يقع فيها تحت ضغط الاستفزاز من قِبل الآخرين حول عقيـدة الألوهية، أو بدافـع نداء الحاجة أو الإحسـاس بالخوف أو غيرها من العوامل النفسـيّة التي تجعله يشـعر بالانكسـار والضعف، فيلجأ إلى الله,تعالى، فعادة يصعب على الإنسان كتم هذا السرّ في صندوق قلبه على نحوٍ مغلق ومحكم ودائمًا، فـ»ما أضمر أحدٌ شيئًا إلّا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه»[1]، كما ورد عن أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام.

وهناك بعض الشـباب على النقيض من ذلـك، فإنّه يُخفي إلحاده تحت عباءة الإيمان بالله, تعالى, لتحقيق بعض الأغراض الدنيوية والحفاظ على مصالحـه التـي تقتضي ذلك، فهـو يُنكِر الله تعالى في قلبـه، ولكنه يؤمن بلسـانه، كحال المنافقين في زمان رسـول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فهذا الشـخص يصدق عليه أنّه منافـق واقعًا، ﴿**قَالُوا آمَنَّـا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ**

1 - الشريف الرضي، نهج البلاغة، الحكمة: 26.

تُؤْمِــن قُلُوبُهُمْ﴾[1]، **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّه وَبِالَيْوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾**[2].

وبهذا يتبيّن أنّه يمكن افتراض الإلحاد على أقسام:

1. الملحــد قلبًا وقالبًا: وهــو المعتقد بعدم وجود اللــه, تعالى, في قلبه وينطق بها لسانه.

2. الملحــد قلبًا لا قالبًا: وهــو المعتقد بعدم وجود الله,, تعالى في قلبه، ويظهر بلسانه خلاف ذلك.

3. الملحــد قالبًا لا قلبًا: وهو المعتقــد بوجود الله في قلبه، ولكنه يظهر بلسانه خلاف ذلك.

1 - سورة المائدة، الآية: 41.

2 - سورة البقرة، الآية: 8.

المبحث الثاني:
المقدِّمات المنطقيَّة لتحليل مفهوم الإلحاد

الإلحـاد اصطلاحًا مفهوم فلسـفيّ، لأنّه موقف مـن الوجود، أي وجود الله,تعـالى، وتحليله وتشريحه على نحو يرفع الغمـوض عنه، يبتني على مجموعـة مـن المقدِّمـات المنطقيَّة، التـي نعرضها على نحوٍ مُبسَّـط مع النـماذج والأمثلـة. بحيث يتمكّـن القارئ بعض مطالعة هـذه المقدِّمات وتطبيقهـا على مسـألة الإلحاد -كـما في المبحث الثالث- مـن أن يناقش الملحـد ويحـاصره في الدائرة المنطقيَّة، ويحرجـه في تحديد موقعه على خريطة المعرفة بالوجود والله, تعالى.

● **أوّلًا: أقسام الانكشاف المعرفيّ في المنطق:**

يجد الإنسان نفسه أمام مواقف عدّة تجاه أيِّ سؤال يطرحه على نفسه أو يُطرَح عليه:

أ. الجهل واللامعرفة:

■ **الأوّل:** الجهل واللامعرفة، بمعنى عدم معرفة الجواب، فالنسبة المئويّة رياضيًّا للكشف عن الشيء هي صفر.

كما لو سُـئِل شخصٌ: ما هو مجموع زوايا المثلث؟ أو ما هي درجة كلّ زاوية من زوايا مثلث متساوي الأضلاع؟

فيقول: لا أعلم، لا أعرف، لا أدري...

فهو يجهل أنّ مجموع زوايا المثلّث يساوي: 180°، ويجهل أنّ كلّ زاوية من مثلث متساوي الأضلاع هي: 60°.

وكما لو سُـئِل شابٌّ مُلحِد: ما معنى واجب الوجود أو بسيط الحقيقة أو علّة العلل في الفلسفة؟ فيجيب: لا أعرف.

ب. الاحتمال والفرضيّة:

■ **والثـانيّ:** الاحتـمال، وهو كلّ جواب تكون نسـبته المئويّة رياضيًّا ما دون 50 %.

كما لو سُئِل طبيب نسائيّ: ما هي نسبة حدوث الحمل قبل الإباضة بـ 3 أيام؟ فيجيب: 27 % -مثلاً-.

وكما لو سُئِل شابٌّ ملحد متحيّر: هل تؤمن بوجود مُصمِّم ذكيّ للكون؟ فيجيب: وجود الصانع فرضيّة مُحتملَة، ولكن بنسبة مئويّة ضئيلة جدًّا.

ت. الشكّ وتعادل النسبة:

■ **والثالث:** الشـكّ، وهو عبارة عن تعادل النسبة المئويّة للإثبات والنفيّ في الذهـن البشريّ 50% / 50 %، بحيث لا يُرجِّح الإنسـان أيّ طرف من الإيجاب والسّلب على الآخر بأيّ نسبة مئويّة، فلا طرف الإثبات أولى من النفيّ، ولا العكس.

كما لو سُـئِل أحد علماء الفقه المقارَن: هل الملحد في الفقه الإسلاميّ محكوم بالطهارة أم النجاسة؟

فيجيب: يوجد رأيان: الأول: القول بالطّهارة. والثاني: القول بالنجاسة.

ثم إذا سُئل ثانية: شيخنا العزيز، أيُّ القولين تُرجِّح؟

فيجيب: لم أبحث في مدارك المسألة وأدلّتها، فلا أستطيع أن أرجّح قولاً على الآخر.

فهنا تتعادل نسبتا القول بنجاسة الملحد وطهارته في ذهن المُجيب، فهو لا يملك دليلاً على الطهارة، ولا دليلاً على النجاسة.

وكما لو سُـئِل أحد الشّـباب اللاأدريّـين أو اللاأباليّـين -غير المكترث بالبحـث عن الحقيقة والأديان-: هل هذا الكـون له خالق وصانع أم وُجِد صدفة؟

فيجيب اللاأدريّ: أنا في شكٍّ من الأمر، لا أدري، يمكن أن يكون هناك صانع، ويمكن أن لا يكون.

ويجيب اللااكتراثيّ: هناك أشـخاص يؤمنون بالله، وهناك أشـخاص لا يؤمنون به، وأنا لا أكترث للموضوع، ولم أبحث عنه، فلا أستطيع أن أرجح رأي أيٍّ منهما على الآخر.

ث. الظنّ والاطمئنان:

■ **والرابع:** هو الظنّ أو الاطمئنان، وهو الجواب الذي يقوم على ترجيح أحد الطرفين على الآخر بنسـبة مئوية تزيد عن الـ 50%، ولكنها تبقى دون الـ 100%.

كما لو سُئِل أحد علماء تفسير القرآن الكريم عن قوله تعالى: ﴿**لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ**﴾[1]؟

فيجيب: يـا بُنيّ، هناك آراء عـدّة في قوله تعالى: (ومـا عملته أيديهم): الأوّل: أنّ «مـا» نافية، وهو الّذي نرجّحه، فيكون المعنى: ليأكلوا من ثمره الّذي اختصّ الله, تعالى, بخلقه ولم تعمله أيديهم، لأنّه, تعالى, لم يستعن

1 - سورة يس، الآية: 35.

بهم حتى يشاركوه في تدبير الأرزاق، فما بالهم لا يشكرون الله, تعالى؟!!

وهنـاك رأي آخـر مُحتمَل أيضًا: أن تكون «مـا» موصولة بمعنى: الّذي، معطوفة على «ثمره»، والمعنـى: ليأكلوا من ثمره ومن الّذي عملته أيديهم من ثمره كالخلّ والدبس المأخوذَيْن من التمر والعنب وغير ذلك[1].

فأقـصى ما يمكن أن يصل إليه المفسِّر في الآية هو الظنّ بالمعنى المراد لله, تعالى دون أن يصل إلى مرتبة اليقين، وهذا الظنّ يُصطلح عليه في علم أصول الفقه: «الظهور»، هو حجّة شرعيّة معتمدة في فهم كلام الله, تعالى.

ج. اليقين والعلم الجازم:

■ **والخامـس:** هو اليقين أو القطع أو الجـزم أو العلم...، وهو الجواب الـذي يقـوم على الكاشـفيّة التامّة التي لا تحتمل أي خـلاف مهما كانت درجتـه ضيئلة، فالنسـبة المئويّة رياضيًّا للانكشـاف هـي 100%، فيكون الطرف الآخر هو صفر.

كما لو سُئِل شخص عراقيّ: هل نهر الفرات مالح أم عذب؟

يجيب: قطعًا عذب.

أو سُـئِل مثـلاً: هل مقـام أمير المؤمنين عـلي عليه السّـلام في النجف الأشرف أم في كربلاء المقدّسة؟

فيجيب: يقينًا في النجف الأشرف.

وهـذا حال المؤمـن بوجود الله, تعـالى, غالبًا، فإنّه متيقّـن من وجوده, تعـالى، على نحو لا يخالـط يقينه أي احتمال بالعـدم، فلديه يقين مركّب

1 - انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج17، ص87.

بوجود الله,تعالى، أي اعتقاد بقضيّتين:
الأولى: إنّ الله, تعالى، موجود.
والثانية: يستحيل أن لا يكون الله، تعالى، موجودًا.

● ثانيًا: انقسام القضايا إلى بديهيَّة ونظرية مُستدَلة

إنّ أيَّ قضية تُعرَض على الذهن البشريّ، تُصنَّف على نحوين:

1. الأوّل: القضايا البديهيَّة والضروريّة التي لا تحتاج إلى دليل

وهي القضايا التي لا يحتاج الاعتقاد بها إلى الاستدلال وبذل أيّ جهد عقليّ. مثل القضايا الحسيّة، فإذا كان ثمة شخصان يقفان في وسط نهار مشمس حارٍّ، تتربّع فيه الشمس على عرش السماء، فلن يسأل أحدهما الآخر -مع سلامة حاسّة النظر- هل الشمس موجودة؟ وما الدليل على ذلك؟ فإنّه هذا السؤال ضرب من الجنون والحمق، لأنّ وجود الشمس حسيٌّ لا يحتاج إلى دليل.

وكذلك الحالات الوجدانيّة التي يعيشها الإنسان مع نفسه، فهو يشعر بالخوف أو الجوع أو التعب، ولا يُطالِب نفسه بالدليل على كونه خائفًا، فإنّ اعتقاده بأنّه خائف في هذه اللحظة أو جائع بديهيّ لا يحتاج إلى دليل.

وعلى كلّ حال، تنقسم القضايا البديهيَّة إلى قسمين أيضًا:

1.1. القسم الأوّل: قضايا بديهيَّة ليست فقط لا تحتاج إلى دليل، بل يستحيل إقامة الدليل عليها أصلاً، مثل: قانون التناقض، فأيّ عقل بشري فطريّ سليم لم يُلوَّث بالشُّبهات والتربية الفاسدة، إذا سألته: هل يمكن أن تكون أنتَ موجودًا ولا موجود في زمان واحد في مكان واحد؟ سيجيب:

قطعًا يستحيل أن أكون موجودًا في النجف الأشرف ولا موجودًا فيها بل في مكان آخر كبغداد في الوقت عينه.

فمعنى النقيضين: السلب والإيجاب، لأنّ نقيض كلّ شيء هو رفعه وسلبه، فالاعتقاد بأنّ اجتماع النقيضين على شيء واحد محال، أمر بديهيٌّ لا يحتاج إلى دليل ويستحيل إقامة الدليل عليه، لأنّ أي دليل يريد أن يستخدمه الإنسان لإثبات صحّة وصدق هذه القضية هو يحتاج إليها في الرتبة السابقة، وإلّا لصح الدليل ونقيضه، فما المشكلة في أن تكون هذه القضية صادقة وكاذبة في الوقت نفسه؟!! إلّا إذا افترضنا سابقًا التسليم بأنّ الصدق والكذب لا يجتمعان على شيء واحد في الوقت نفسه، وهذا هو قانون التناقض، إذًا قانون التناقض يسلِّم به الإنسان قبل الاعتقاد بأيّ قانون آخر، والإيمان بصدق أي قضية مع كذب نقيضها الذي يقابلها، يحتاج إلى الاعتقاد بهذا القانون، وإلّا لم يكن للإيمان بصدق القضية أي معنى.

2.1. والقسم الثاني: قضايا بديهيَّة، لا تحتاج إلى دليل، لكن يمكن إقامة الدليل عليها، مثل القضايا الفطريّة بالاصطلاح المنطقي، وهي قضايا بديهيَّة يصدّق بها العقل بوساطة دليل خاصّ، ولكن هذا الدليل دائمًا ما يكون مقترنًا بها، بحيث لا يغيب عن الذهن البشريّ كي يحتاج إلى بذل جهد فكريّ وكسب وطلب.

مثال: لو سأل أستاذ مادّة الرياضيّات تلميذًا في المدرسة : ما هي نسبة الـ 2 إلى العشرة؟

يجيب: عدد 2 نسبته 5/1 من 10، أي الاثنين هي خمس العشرة.

ولو سأله: ما الدليل؟

يجيب التلميذ: أستاذ، هذه مسألة رياضيّة بديهيَّة، لا تحتاج إلى دليل.

إنّ ذهن التلميذ اشتغل ضمن عمليّة استدلال مستبطنة ولكنه لم يلتفت إليها، هنا يأتي دور أستاذ الرياضيّات ليساعده على معرفة الدليل. فيمكن لأستاذ الرياضيّات أن يقيم دليلاً على هذه القضيّة الرياضيّة، على الشكل التالي:

الاثنين عدد قد انقسمت العشرة إليه وإلى أربعة أقسام أخرى كلٌّ منها يساويه.

وكلُّ ما ينقسم عدد إليه وإلى أربعة أقسام أخرى كلٌّ منها يساويه فهو خُمُس ذلك العدد. فالاثنان خمس العشرة.

ومثل هذا البرهان حاضر في الذهن، لا يحتاج إلى كسب ونظر، ولكن قد يغفل عنه ذهن التلميذ. وهو برهان يجري في كلّ نسبةِ عدد إلى آخر، غير أنّ هذه النسب يختلف بعضها عن بعض في سرعة مبادرة الذهن إلى المطلوب وعدمها بسبب قلة الأعداد وزيادتها، أو بسبب عادة الإنسان على التفكير فيها وعدمه، فإنك ترى الفرق واضحًا في سرعة انتقال الذّهن بين نسبة 2 إلى 4 وبين نسبة 13 إلى 26 مع أنّ النسبة واحدة، وهي النصف، أو بين نسبة 3 إلى 12 وبين نسبة 17 إلى 68 مع أنّ النسبة واحدة هي الربع... وهكذا[1].

وعلى كلّ حال، إذا كانت القضيّة بديهيَّة هذا لا يعني ضرورة التصديق

1 - انظر: المظفر، المنطق، ص336-337.

بها عند كلّ الأذهـان البشريّة، بل هناك بعض البشر قد ينكرون البديهيّات لفظًـا أو واقعًا، إمّا لبلادة الذّهن، وإمّا لشـبهة علميّة أو عقديَّة، وإمّا لتربية منحرفة، أو العيش في بيئة فاسـدة ﴿**قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾[1]، وإمّا لمرض نفسيّ أو أخلاقيّ كالحسـد والظلم والعلو... كـما يخبرنا القرآن الكريم في مواضع عـدّة أنّ هناك صنفًا من الناس ينكر الحقّ ويجحد بـه بعد معرفته والتيقّن منـه، ولا يكون هذا الإنكار إلاّ باللسـان فقط، مـع أنّ القلب معقود على شيء آخر، فهناك تصديق ذهنيّ، وإيمان قلبيّ، وإنكار في اللسان.

ومن النماذج على ذلك في القرآن الكريم، من دون أن ندخل في تفاصيل الشرح، قوله تعالى:

- ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ**﴾[2].
- ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾[3].

هل قضية: «الله موجود» بديهيَّة أم نظريّة؟

﴿**أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[4].

طبعًا الجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى شيء من الشرح والتوضيح، نكتفي هنا بالإشارة السريعة، ونؤجّل دراسة المسألة إلى بعض الأبحاث اللاحقـة، فنحـن نعتقد أنّ الإيمـان بالله, تعالى, بديهـيّ لا يحتاج إلى

1 - سورة البقرة، الآية: 170.
2 - سورة البقرة، الآية: 89.
3 - سورة النمل، الآية: 14.
4 - سورة إبراهيم، الآية: 10.

دليل، فكلّ صاحب عقل سليم إذا تأمّل في أعماق نفسه، وفي الظواهر الكونيّة، يصل إلى نتيجة مفادها أنّ الصانع الحكيم والخالق المُتقِن موجود، فهو على كلّ شيء وفي كلّ شيء مشهود، ففي كلّ شيء له تعالى آية تدلّ عليه.

وكما ورد في الدعاء المنسوب إلى الإمام الحسين, عليه السلام, في يوم عرفة: « كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟! أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المُظهِر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟! عميت عين لا تراك».

ولذا يقول العلامة الطباطبائي: «... يظهر للمتأمل أنّ أصل وجود الواجب بالذات ضروريٌ عند الإنسان والبراهين المُثبِتة له تنبيهات بالحقيقة»[1].

فالاعتقاد بوجود الله, تعالى, لا يحتاج إلى دليل، لأنّه بديهي، بل يحتاج إلى التنبيه، والفرق بين الدليل والتنبيه، أنّ الدليل نعتمده -كما سيأتي- لإثبات شيء غائب عن الذهن غير حاضر فيه، أما التنبيه فنعتمده لشيء حاضر في الذهن لكن الإنسان لسبب أو آخر غافل عنه، فالدليل فرع الجهل بشيء مفقود، أما التنبيه فرع الغفلة عن شيء موجود.

فالإيمان بوجود الله, تعالى, مجبول في داخل كلّ ملحد، ولكنه ينكره -إن صحّ إنكاره واقعًا- نتيجة التربية الفاسدة، أو الشّبهات الفكريّة، أو

1 - صدر المتألهين الشيرازي، الحكمة المتعالية، مع تعليقات العلامة الطباطبائي، ج6، ص14.

البيئـة المنحرفـة، أو المرض النفسيّ كالظلم والعلو والحسـد، أو التهرّب من المسؤليّات الدينيّة، أو لتحصيل الأهداف الماديّة ليشتري بإلحاده ثمنًا قليلاً... إلخ من العوامل.

القسم الثاني: القضايا النظريّة المُستدَلة:

لو سأل شخص متخصّص في الفيزياء إنساناً بسيطًا عن معادلة أينشتاين التالية: $E=mc^2$ ، ماذا تعني؟ وما هو دليلها؟ لن يعرف الإجابة.

ولكن هذه المعادلة تعني: أنّ الطاقة energy (E) تساوي الكتلة mass (m) ، مضروبة في مربع سرعة الضوء The Speed of Light Constant (c)

ولكنها معادلة فيزيائيّة تحتاج إلى دليل.

وكذلك إثبات كون مجموع زوايا المثلث تساوي 180 درجة، يحتاج إلى برهان رياضيّ.

وهكذا في أي علم من العلوم، تحتاج المعادلات عادة إلى برهان ودليل مُثبِت.

فالقضايـا النظريّـة: هي قضايا يعتقد بها الإنسـان بعد بـذل جهد عقليّ وعمليّة اسـتدلال، أي هي القضايـا التي يحتاج العقل البـشريّ للاعتقاد بصحّتها إلى البرهنة.

وقد أدّبنا المنطق القرآني على أن البرهان هو معيار الصدق، يقول تعالى: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1].

1 - سورة البقرة، الآية: 111.

فالأصـل عند الذهن البشريّ مقابل أي قضيّـة نظريّة هي أن يعيش حال الشـكّ وتعادل نسبة الإثبات والنفي، فلا يسارع إلى الإثبات بلا دليل، ولا إلى النفي بلا دليل، لأنّ الخروج عن حدّ التعادل ونسبة الوسط -أي من الـ 50 %- إلى طرف الإثبات يحتاج إلى دليل، وكذلك الخروج عن الـ 50 % إلى طرف النفي يحتاج إلى دليل.

ولا يكفي عدم الدليل على الإثبات، ليكون ذلك دليلاً على النفي.

وكذلك لا يكفي عدم الدليل على النفي، ليكون دليلاً على الإثبات.

فمثـلاً لو طرحنا هذا السـؤال: هل هنـاك كائنات فضائيّـة ذكيّة وعاقلة تسكن في مجرّة ما في هذا الكون الواسع والفسيح؟

الجواب الأساس على هذا السؤال هو: تعادل النسبة الرياضيّة في الذهن البـشريّ 50 %/ 50 %، لأنّ إثبات وجود كائنات فضائيّة حيّة خارج كوكبنا أو منظومتنـا الشمسـيّة أو مجرّتنا يحتـاج إلى قرائن وشـواهد وأدلّة، وإذا لم يسـتطع الأحياء الفلكيّ Astrobiology مثـلاً أن يُثبت وجود الكائنات الفضائيّة الحيّة الذكيّة، فهذا لا يعني عدم وجودها، لأنّ عدم الوجدان ليس دليـلاً على عدم الوجود، إذ قد تكون موجـودة في مكان ما، لم تصل إليه أجهزة الإنسان وأدواته.

كذلـك أيضًـا، إنّ نفي وجود الكائنـات الفضائيّة في مـكان ما من هذا العالم، يحتاج إلى دليل.

ولا يكفي فقدان الدليل -حتى هذه اللحظة- على وجودها لنفي وجودها، إذ لعلّه في المستقبل تكتشف الإنسانيَّة وجود مثل هذه الكائنات، فالإنسان الموضوعـي الذي يفكّـر بطريقة علميّة يكـون موقفه هـو تعليق الحكم

والعيـش في دائرة الشـكّ المنهجيّ لا الوسـواسيّ المـرضيّ[1]، فلا يُنكِر وجـود كائنات فضائيّة، لأنّه يمكن أن تكون موجودة، مع عدم توفّر الدليل على نفي ذلك.

فعدم الدليل ليس دليلاً على العدم، بمعنى أنّ فقدان الدليل على قضية، لا يعنـي أنّه ينبغي إنكارها ورفضها، بل أن يتوقّف في المسـألة، ولا يكون هناك موقف إيجابي أو سلبي منها.

عـن الإمام الصادق عليه السّـلام: « لو أنّ العبـاد إذا جهلوا وقفوا، ولم يجحدوا، لم يكفروا»[2].

1 - الفرق بين الشكّ المنهجي والشك المرضيّ الوسواسيّ: أنّ الأول هو حالة طبيعية تجاه القضايا التي لا يوجد دليل على إثباتها أو نفيها، وهو عادة الركن الذي يلجأ إليه الباحث عند فقدان الدليل، فيحتفظ بشكّه إلى أن يقوم البرهان الواضح، أمّا الشك الثاني فهو حالة مرضية، فحتى مع وجود الأدلة يبقى الإنسان يعيش في دائرة الشكّ، فهو شخصية مترددة متحيّرة مضطربة.

2- الكليني، الكافي، ج2، ص388، ح19.

المبحث الثالث:
المواقف الفلسفيّة المتعدّدة من سؤال: هل اللّه موجود؟

● أوّلاً: الاعتقاد فرع المعرفة:

انطلاقًا من المقدِّمات المنطقيَّة التي عرضناها سابقًا، نصل إلى المحور الأساس الذي نودّ معالجته، وهو أنّه يمكن عرض مواقف مختلفة في الإجابة عن سؤال: هل الله موجود؟

ونعيد التذكير بأنّ كلّ قضيّة نظريّة تحتمل ابتداءً الصدق والكذب، أي تتكافأ فيها قيمتا الصدق والكذب بنحو التساوي، فلا ترجح إحداهما على الأخرى، وهذا يعني أنّ الموقف المبدئي من سؤال: هل الله موجود؟ (على افتراض كون الاعتقاد بقضية: «الله موجود» هو نظريّ وليس بديهيًّا) هو الشكّ، بمعنى تعادل نسبة الإثبات والنفي لدى الذهن البشريّ، ولا يترجّح أحد الطرفين -وجود الله تعالى أو عدم وجود الله تعالى- على الآخر إلّا بدليل، ولا يكفي عدم الدليل على وجود الله تعالى أو المناقشة في أدلّة وجود الله تعالى لإنكار وجوده، بل الإنكار يحتاج -أيضًا- إلى أدلة وبراهين.

وهناك مقدِّمة أخرى ينبغي ذكرها في المقام، هي أنّ التصديق فرع التصور والاعتقاد فرع المعرفة، بمعنى أنّه لا يمكن للإنسان أن يحكم على شيء إثباتًا أو نفيًا، إلّا بعد تصوّر الموضوع والمحمول، فالمجهول المطلق لا يمكن أن يصدر أي حكم عليه أبدًا.

فلو سُـئِل أحد العلماء مثـلاً: هل المارْماهي والجِـرّيّ حلال أم حرام؟ فإنّـه لن يجيب بـ: نعـم، أو: لا، لأنّه مجهول، فلا يمكنه أن يعطي حكمًا، لكن بعد معرفة معنى «المارماهي»، يمكنه إصدار حكم، فإذا تصوّر معنى المارماهي، وأنّه نوع من السّمك ليس له فَلْس، فيجيب: لا يحلّ أكله.

وبناء عليه، نفترض أنّ معنى «الله» في السؤال، هو: الموجود الّذي صنع هذا العالم المدهش العجيب وأبدع هذا الكون الجميل المُتقَن من العدم.

● ثانيًا: بين الإثبات والنفي والشكّ:

أ. التديّن والإيمان بالله theism:

ب. والربوبيّة Deism:

■ إمّـا أن يقوم دليل على إثبات وجـود الله,تعالى، فتصدق قضية: «الله موجـود»، ويكـذب نقيضهـا، لأنّ النقيضـين لا يجتمعان -كـما ذكرنا-، فيسـتحيل عقـلاً أن تصـدق هـذه القضية مع صـدق نقيضهـا: «الله غير موجود»، وهذا هو موقف الإلهيّين والربوبيّين.

الربوبيّة Deism

الربوبيّة اتجاه فلسـفيّ خاصّ يمكن تلخيـص وجهة نظره ضمن النقاط التالية:

أولًا: تعتقد أنّ الإنسـان يمكنه معرفة المهندس العظيم للكون المتعالي عن طريق العقل ومراقبة ما في الطبيعة من إتقان وذكاء ودقّة تنظيم...

وثانيًا: تعتقد أنّ المصمّم الذكيّ أو المهندس العظيم للكون خلقه ضمن قوانين فيزيائية وأحيائيّة و... خاصّة، وانتهت مهمّة الإله عند هذا الحدّ، وتركه يعمل وفقًا للقوانين الفيزيائيّة والطبيعيّة التي خلقها، فكما أنّ الساعة تحتاج إلى الصانع في صنعها, ولكنها تستغني عنه بعد ذلك، بحيث لا يضرها وفاة الصانع، كذلك فإنّ المهندس العظيم أبدع الوجود ضمن قوانين خاصّة، والكون يعمل ضمن تلك القوانين، بلا حاجة إلى يد المهندس الصانع بعد ذلك، فالكون يحتاج إلى المهندس حدوثًا لا بقاءً. وقد عبرّ عن ذلك توماس كارليل بقوله: «إله الربوبيِّين إله غائب، يقعد بلا عمل منذ السبت الأوّل خارج أطراف كونه، ليراه يعمل»[1].

والخلاصة: ينكرون فكرة استمرار تدخل الله, تعالى, في الكون وحياة الإنسان والتاريخ البشريّ والمدد الغيبيّ...

وثالثًا: ينكرون الوحي والنبوة، ولا يعتقدون بأن الله, تعالى, عرّف نفسه للبشريّة عبر الكتب السماويّة، فالمهندس العظيم والمصمّم الذكيّ لم يرسل الرسل ولا الأنبياء ولم يتّصل بالبشر ليأمرهم بشيء أو ينهاهم عن شيء، فالأديان من اختراع الخيال البشريّ، فالإنسان يتمكّن بعقله أن يستقل عن الأديان ولا يحتاج إليها.

ورابعًا: يختلف الربوبيّون حول عالم ما بعد الموت، وخلود الروح، فبعضهم يعتقد أنّ الموت هو نهاية حياة الإنسان، وأنّه إن كان ثمّة ثواب أو عقاب على حسن الأفعال وقبحها، فإنّما ينال الإنسان استحقاقه وجزاءه

1 - انظر: طلعت، العودة إلى الإيمان، ص43.

في هذا العالم، وبعضهم الآخر يعتقد بأنّه لا يمكن إنكار وجود شكل آخر من الحياة بعد الموت، ولا يستطيع العقل البشريّ أن يحكم حكمًا جازمًا في هذا المجال.

وبناء عليه، الربوبيّ يشمله الملحد بالمعنى القرآني، لأنّه ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ**﴾[1]، حيث يشمل إنكار استمرار تدخّل الله, تعالى, في الكون والحياة الإنسانيَّة بالخلق والإحياء والإماتة والتدبير والرزق... وكذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا**﴾[2]، ومن ضمنها الآيات الوحيانيّة والنبويّة.

ت. الإلحاد atheism:

■ وإما أن يقوم دليل على نفي وجود الله,تعالى، فتصدق قضية: «الله غير موجود»، وتُكافئ في قيمتها المنطقيَّة: «الله معدوم»، ويكذب نقيضها أي: الله موجود، وهذا هو موقف الملحدين والزنادقة والدهريّين.

ث. الشكوكيّة واللاأدريّة Agnosticism:

■ وإما ألَّا يقوم دليل عى الإثبات، ولا على النفي، فتبقى القضية متكافأة الطرفين، ويتمّ تعليق الحكم، والشكّ، وهو موقف اللاأدريّين. فاللاأدري هو الشّخص الذي لا يملك دليلاً على وجود الله، وفي الوقت عينه لا

1 - سورة الأعراف، الآية: 180.
2 - سورة فصلت، الآية: 40.

يملـك دليلاً على النفي، فهـو لا يقول: «الله غير موجـود»، بل يقول: لا أعلم بأنّ الله موجود.

فاللاأدريّة اتجاه فلسـفيّ شكوكيّ موقفه هو تعليق الحكم تجاه القضايا المتعلّقة بما وراء الطبيعة، دون إصدار حكم بالإثبات أو النفي. فاللاأدري يعتقد أنّه لا يمكن معرفة فيما إذا كان هناك خالق لهذا الكون أو لا، فهو لا يُثبت وجود الله ولا ينفي وجوده تعالى.

يقول برتراند راسـل: «يعتقـد اللاأدري أنّه من المسـتحيل معرفة حقيقة بعض القضايا؛ مثل: الإله, أو الحياة الآخرة بعد الموت, مثل التي تؤمن بها المسيحيّة وبعض الأديان الأخرى»[1].

وبذلـك يفترق اللاأدريّ عن المتديّن المؤمن بالله أو الربوبيّ لأنّهما من المُثبتين، ويختلف عن الملحد المنكر لوجود الله لأنّه من النافين.

مثلاً، يقول تشـارلز داروين إنّه لم يكن ملحـدًا أبدًا، بمعنى إنكار وجود إله، وإذا كان ثمة وصف لحالتي العقليّة فهو: «لاأدري»[2].

وقد تبنى الفيلسـوف البريطاني برتراند رسل هذا الموقف، حيث يقول: «كفيلسـوف، إذا كنت أخاطب جمهورًا فلسفيًّا بحتًا، ينبغي عليّ أن أصف نفسي بـأنيّ: «لاأدري»؛ إذْ إنّني لا أعتقد أنّ هناك حجّة قاطعة من قِبَل أيّ شـخصٍ تُثبِت أنّه ليس هناك إلـه. ومن ناحية أخرى، إذا كنت أريد إيصال

1 - Bertrand Russell (2009), The Basic Writings of Bertrand Russell, p557

2 - Mary Everest Boole ,What did Darwin believe?
https://web.archive.org/web/20090225124103/http://www.darwinproject.ac.uk/content/view/130125//

الفكـرة الصحيحـة إلى الرَّجل العاديّ في الشّـارع، أعتقـد أنّه ينبغي عليّ القول بأنّني مُلحد، لأنني حينها سـأخبره بأننـي غير قادر على إثبات عدم وجود إله»[1].

وبهـذا تتميّز اللاأدريـة كاتجاه ومنهج تفكير تجـاه قضايا الألوهية، عن الشك المنهجي الذّي يعيش في دائرة البحث من أجل الوصول إلى الحقيقة، فالثـاني يقـول يمكن للإنسـان أن يتثبت مـن وجود الله تعـالى من عدمه بالفحص عن الأدلة، فالشكّ عنده بداية الانطلاق على طريق الوصول إلى اليقين، أمّا «اللاأدري»، فهو قد حدّد موقفه الفلسفي والمنطقي والمعرفي بأنّـه لا يمكن معرفة وجود إله من عدمه، ويقفل باب البحث، فيتحول هذا الموقف الفلسفي من الوجود إلى حالة مرضيّة معرفيًّا.

يقول فيلسـوف اللاأدريّة توماس هكسـلي مُعبرًّا عـن موقفه المنطقيّ: «عندمـا وصلـت لمرحلة النضج الفكري، وبدأت أتسـاءل عـمّا إذا كنت ملحـدًا؟ أم مؤمنًـا بالكون وخالقـه؟ ماديًّـا أم مثاليًّا؟ مسـيحيًّا أم مفكّرًا حرًّا؟؛ اكتشـفت أنّه كلّما تعلمت وتأملت كلّـما كانت الإجابة أبعد؛ حتى اسـتنتجت في نهاية المطاف أنّه ليس لدي مهـارة أو أيّ جزء من كلّ تلك المسـميات إلّا الأخيرة [مفكّـرًا حرًّا]. إنّ الشيء الوحيـد الذي يتفق عليه معظـم هؤلاء الناس الطيبـون هو ذات الشيء الذي أختلـف عليه معهم. لقـد كانوا متأكدين من بلوغهم مرحلـة الغنوصيّة، وأنهم قد نجحوا تقريبًا في حلّ مشـكلة الوجود؛ بينما كنت متأكّدًا نوعًا ما من أنيّ قد فشـلت في

1 - رسل، لماذا لست مسيحيًّا، ص203-204.

تحقيقه، وكنت على قناعة قوية أنّها مسألة لا يمكن حلّها... وبذلك تأملت واخترعت ما رأيته عنوانًا مناسبًا يحمل اسم: لاأدري»[1].

ويبـيّن روبرت إينجرسـول أيضًا موقفه اللاأدريّ بقولـه: «هل هناك قوة خارقة للطبيعة وعقل تعسفي وإله وإرادة عليا تُحرّك الأمواج والتيارات في العالم، والتي تقدسها كلّ الأسباب؟ أنا لا أنكر ولا أعرف».

اللاأدريّة: أرقام وإحصاءات:

نشرت صحيفة فاينانشـال تايمز[2] عام 2006م دراسة أجريت في الولايات المتحدة وخمسة دول أوروبية، أظهرت أنّ نسبة اللاأدرية على الشكل التالي:

الدولة	نسـبةاللاأدريّين
الولايات المتحدة	% 14
إيطاليا	% 20
ألمانيا	% 25
أسبانيا	% 30
فرنسا	% 32
بريطانيا	% 35

1 - Huxley, Thomas. Collected Essays, Science and Christian Tradition, pp. 237–239.

2 - Religious Views and Beliefs Vary Greatly by Country, According to the Latest Financial Times/Harris Poll. Financial Times/Harris Interactive,2006.

ووفقًا للمكتب الأسـترالي للإحصاء[1] عام 2011، هناك نسبة 22 % من الأستراليين بلا دين، وهي فئة تشمل اللاأدريين.

ونـشرت الموسـوعة البريطانيـة عـام 2010 دراسـة أظهـرت أن نسـبة اللاأدريين في العالم: 9.6 %.

وفي عـام 2012، قامت الشـبكة العالمية المسـتقلة ومؤسسـة غالوب الدولية باستبيان، كانت نتيجته:

أجاب 59 %	**أنّهم متديّنون**
أجاب 23 %	**أنّهم لادينيّون**
أجاب 13 %	**أنّهم ملحدون عن اقتناع**

وترتفع نسـبة الملحدين واللاأدريّين في اليابان[2]، فإنّها بلغت 65%، أمّا في فيتنام فقد بلغت 81 %.

● **ثالثًا: الفلسفة الوضعيّة: سؤال: هل الله موجود؟ فارغ المعنى:**

هناك مدرسـة فلسـفيّة منطقية في أوروبـا كان لها حضورٌ قويّ سـابقًا، وما زالت تتمتّع بقوة حضور في أوسـاط الملحدين على مسـتوى منهجية التفكير، وهي: «الوضعيّة المنطقيَّة»[3].

1 - http://www.abs.gov.au/ausstats/abs@.nsf/lookup/2071.

2- Zuckerman, Phil (2007). The Cambridge Companion to Atheism. p. 56

3 - انظر: عجمي، سامر توفيق، الوضعية دارسة مفهومها ومنزلتها في علم المعرفة المعاصر، صص (163-222).

لا ينسجم موقف هذه المدرسة مع أيٍّ من المواقف الثلاثة السابقة، لأنّ رؤيتها المنطقيَّة والمعرفيّة قائمة على أساس أنّ كلّ قضية لا يمكن التحقق من صدق مضمونها بوساطة الملاحظة الحسيّة فهي قضية فارغة المعنى، بل هي ليست قضية أصلاً، فهناك ثلاثة أنواع من القضايا في هذه المدرسة:

1. قضية مفهومة وعليها دليل حسيّ فعليّ. مثل القول: الطقس ماطر الآن، أو الحديد يتمدّد بالحرارة...

2. قضية مفهومة وليس عليها دليل حسيّ فعليّ، ولكن ممكن إقامة الدليل عليها في المستقبل، بمعنى أنّه ليس هناك أي مانع عن ذلك. مثل قابلية التثبّت من وجود كائنات حيّة على كواكب أخرى.

3. قضية ليست مفهومة ولا معنى لها أصلاً، لأنّه لا يمكن التثبت منها بوساطة الحسّ.

الملحدون -عادة- يقولون: إنّ قضية «الله موجود»، لها معنى مفهوم، ولكن لا مصداق لها، ولا دليل عليها.

لكن الوضعيّة المنطقيَّة تقول: إنّ قضية «الله موجود» غير مفهومة أصلاً ولا معنى لها، لأنّه لا يمكن التثبّت من صحتها بوساطة الوسائل الحسيّة، فليس هناك دليل حسيّ على وجود الله.

يقول الشهيد السيد محمد باقر الصدر: «... وعلى هذا الأساس لو قلت: «الله موجود»، لكان بمثابة أن تقول: «ديز موجود»، فكما لا معنى لهذه الجملة، كذلك تلك، لأنّ وجود الله لا يمكن التعرّف عليه بالحس والتجربة»[1].

1 - انظر: الصدر، موجز في أصول الدين، ص125.

وأدقّ تعبير نجده عن هذه الرؤية الفلسفية لوجود الله, تعالى, ما كتبه ألفريد آير [1] في كتابه: اللغة- الحقيقة- والمنطق: « إنّ السّمة الأساسيّة في موقف اللاأدري Agnostic، هي أنّه يتصور أن وجود إله يمُثل «إمكانية»، بمعنى أنّه لا يوجد في تصوره أسباب وجيهة للإيمان بوجود الله أو عدم الإيمان بوجوده.

أما السّمة الأساسيّة في موقف الملحد atheist، فهي أنّه يأخذ بإمكانية «عدم وجود إله».

أما وجهة نظرنا [الوضعيّة المنطقيّة]، فإننا نرى أن كلّ العبارات التي تقال عن طبيعة «الله»، هي في حقيقتها عبارات «لا معنى لها» non-sensical، ومن ثَمَّ فإنّ نظرتنا لهذه العبارات لا تتطابق -بحال- مع أيٍّ من هاتين النظرتين، ولا تقدّم دعمًا لإحداهما دون الأخرى، وإنما هي -في الحقيقة- متعارضة معهما، لأنه إذا ما كان التقرير الذي يقول «بوجود إله» تقريرًا لا معنى له، فإنّ تقرير الملحد الذي يقرر فيه أنّه «لا يوجد إله» هو -بالمثل- تقرير لا معنى له، طالما أنّه لا يزيد عن كونه تقرير يناقض التقرير الأول.

أما فيما يتعلق بموقف اللاأدري، فنستطيع أن نقول: إنّه بالرغم من امتناعه عن تقرير «وجود إله»، أو «عدم وجود إله»، فإنّه لا ينكر أن السؤال عمّا إذا كان يوجد إله مفارق أم لا، سؤال له معنى أو سؤال أصيل. فهو لا ينكر العبارتين «يوجد إله مفارق» و «لا يوجد إله مفارق»، يعبرّان عن قضايا إحداهما صادقة بالفعل والأخرى كاذبة. فكل ما يقوله: إننا لا نملك

1 -آير، اللغة الحقيقة والمنطق، ص 115-116.

وسائل تمكّننا أن نقرّر أيهما هي القضية الصادقة، وأيهما هي القضية الكاذبة، ومن ثَمَّ فلا يجب أن نلزم أنفسنا بإحداهما.

ولكننا قد تبيّنا كيف أن هذه العبارات لا تعبر بحال عن قضايا، مما يعني أن نستبعد – بالمثل- النزعة اللاأدرية أيضًا.

وينطبق على موقف «الملحد» ما ينطبق على موقف «الأخلاقي» فتأكيداته ليست «صحيحة» أو «غير صحيحة». فطالما لا يخبر بشيء عن العالم، فلا يمكن –من ثم- إدانته بأنّه يقول شيئًا كاذبًا أو شيئًا لا يملك عليه أدلة كافية»[1].

وستأتي مناقشة هذه الفكرة في مبحث خاصّ لاحقًا.

● رابعًا: الفرق بين الملحد والعَلمانيّ:

قد يلتبس على ذهن بعض الشباب التمييز بين بعض المصطلحات فيخلط بينها، كأن يظنّ كلّ علمانيّ هو ملحد، ولكن يجب التنبّه، إلى أنّ العلمانيّين على ثلاثة أقسام:

أ. العلمانيّ الملحد، وهو الذي يدعو إلى فصل الدّين عن الحياة عامّة، انطلاقًا من اعتبار فكرة الإله خرافة وأسطورة وخيال.

ب. العلمانيّ المتديّن، وهو الذي يؤمن بالله, تعالى, وبالدّين، معتقدًا أنّ الدين علاقة فرديّة خاصّة بين الإنسان وبين الله,تعالى، فيدعو إلى فصل الدّين عن السياسة, وشؤون الحكم, وإدارة الدولة, والمجتمعات.

1 - انظر: مهران، محمد، ومحمد مدين، مقدمة في الفلسفة المعاصرة، ص206-207.

ت. العلــمانيّ الربوبيّ، وهو الذي يعتقد بوجــود إله الأكوان، وينكر إله الأديان.

وبهــذا يتبين الفرق بين الملحد والربوبيّ، فــالأوّل ينكر الإله، أمّا الثاني فيؤمن بالإله وينكر الدّين.

وبــين الملحد والعلمانيّ، فكلّ ملحــد علمانيّ، ولكن ليس كلّ علمانيّ ملحدًا، بل قد يكون ربوبيًّا أو متديِّنا يؤمن بالإله والأديان معًا، لكنه يجعل الدّين علاقة فرديّة خاصة بين الإنسان وربّه.

الفصل الثاني:

هل يمكن وجود الملحد الواقعيّ؟

◂ المبحث الأوّل:
هل يمكن إثبات الإلحاد منطقيًّا؟

● **تمهيد:**

سنحاول محاكمة وجود الملحد الواقعيّ في ضوء أربعة منطلقات:

1. المنطق العقليّ.
2. العلم التجريبيّ.
3. الفطرة البشريّة.
4. الوحي الإلهيّ.

ونذكِّر، بأنّنا نقصد بالملحد في هذا المبحث: من ينكر وجود الله,تعالى، أو الذي يعتقد بصدق قضية: الله غير موجود.

ولا يشمل الإلحاد في هذا المبحث:

أ. اللأدريّ، أي الذي يُشكِّك في قضية: «الله موجود».

ب. أو الـذي يعدُّ قضية: «الله موجود» مجـرّد فرضية مُحتمَلة لا يمكن إثباتها.

● **أوّلاً: الملحد لا يملك دليلًا على نفي وجود الله, تعالى:**

ذكرنا سـابقًا، أنّ الأسـاس المنطقـيّ في التعامل مع سـؤال: « هل الله موجـود»، ينبغـي أن ينطلق من الشـكّ، أي تعادل نسـبة الإثبات والنفي، والخروج عن حدّ الاستواء -50%- إلى أحد طرفي الإثبات أو النفي يحتاج

إلى دليل وبرهان، فلا يستطيع الإنسان أن يقول: الله موجود، إلّا بناء على دليل مُثبِت، وكذلك لا يمكنه القول: الله غير موجود، إلّا بناء على دليل ينفي.

فينبغي على الملحد أن يعلم أنّه هو أيضًا مُطالَب بالدليل لإثبات قضية: «الله غير موجود».

فالسؤال: هل يملك الملحد دليلاً ينفي وجود الله, تعالى؟

عادة ما يقع بعض الشباب في مغالطة منطقيّة نتيجة خداع منظّري الإلحاد، إذ يتوهّم أنّ مناقشة أدلّة وجود الله تعالى التي يطرحها المعتقدون بوجوده -مثل: دليل الإمكان، أو الحدوث، أو الحركة، أو دليل النظم، أو التصميم الذكيّ... إلخ- ودحض كونها قادرة على القيام بهذه المهمّة، هو بحدِّ ذاته دليلاً على النفي، فإذا سألت شابًّا ملحدًا: لماذا لا تعتقد بوجود الله؟ يجيب: لأنّه لا يوجد دليل على وجوده.

يا أيُّها المُسكين، منطقيًّا: إنّ عدم الدليل ليس دليلاً على العدم، وعدم الوجدان ليس دليلاً على عدم الوجود. فإذا أمكنك المناقشة في أدلة إثبات وجود الله,تعالى، ولم تتمكّن من الوصول إلى دليل على وجوده، فهذا لا يقابله الاعتقاد بقضية: إنّ الله غير موجود، بل المنطق البحثيّ يفرض عليك التوقّف، وتعليق الحكم، فتدخل في دائرة اللاأدريّة والشكوكيّة، وتقول: أنا لا أدري، أنا شكوكيّ، لا أن تقول: أنا ملحد.

من المستحيل عقلاً إقامة دليل ينفي وجود الله, تعالى, أو يثبت أن الله معدوم، فإلى هذه اللحظة التي نكتب فيها هذه الكلمات لم يتمكّن أي فيلسوف ملحد أن يقيم دليلاً يُثبت فيه قضية: «الله غير موجود»، بل أقصى

ما يمكنه فعله فكريًّا هو أن يناقش أدلة وجود الله تعالى.

هذا برتراند رسل الفيلسوف البريطاني الّذي يُصنَّف في الملحدين، من موقعه كأستاذ رياضيّات ومنطق، ملتفت إلى هذه المغالطة، ولذا نفى عن نفسه علميًّا صفة «ملحد»، وقال: «كفيلسوف، إذا كنت أخاطب جمهورًا فلسفيًّا بحتًا، ينبغي عليّ أن أصف نفسي بأنيّ: «لاأدري».

والسبب الّذي علّل فيه رسل موقفه هذا هو: «إنّني لا أعتقد أنّ هناك حجّة قاطعة من قِبَل أيّ شخصٍ تُثبِت أنّه ليس هناك إله»[1].

فالفيلسوف رسل -وهو المصنّف على رأس قائمة فلاسفة الإلحاد- نفى نفيًّا قاطعًا أن يكون هناك أيّ إنسان يملك دليلاً على نفي وجود الله تعالى.

● **ثانيًا: الحوار الذاتيّ بين الملحد ونفسه:**

وحتى لو فرضنا جدلًا، وسلّمنا بأنّ نفي الدليل على قضية هو بحدّ ذاته دليل على إثبات نقيضها، فالسؤال الذي نطرحه على الملحد: هل قمت أنت بنفسك بالاطّلاع على أدلّة وجود الله تعالى كاملاً؟؟ ثم بعد ذلك، دخلت في عمليّة حوار ذاتي مع نفسك ونقاش فلسفيّ ومنطقيّ وعلميّ مع هذه الأدلة، ثم توصّلت -بعد التفكّر العميق والنظر والتأمّل والتدبّر والتعقّل والفحص والبحث والتنقيب والتحقيق ومحاكمة الأدلة- إلى أنّها أدلة باطلة، وكاذبة، وفاسدة، لا تصلح لإثبات: الله موجود؟!!

مثلاً، هل قرأت كتب: ابن سينا، والغزاليّ، والفخر الرازيّ، والمحقق

1 - رسل، لماذا لست مسيحيًّا، ص203-204.

الطـوسيّ، وملا صـدرا، والعلامة الطباطبائي، والشـهيد مرتضى مطهري، والشهيد محمد باقر الصدر، و...؟؟؟

هـل قرأت مثلاً كتاب: «اللـه، العلم، البراهين»، لميشـيل إيف بولوريه وأوليفيه بوناسيس؟؟؟

وهل قرأت؟؟؟ وهل قرأت؟؟؟

اسـأل نفسـك: هل أنا ملحد عن قناعـة ذاتيّة، نتيجـة البحث في الأدلة ومحاكمـة البراهـين ومناقشـتها؟؟؟ أم أنّا قمت بتقليـد الآخرين - أمثال: ريتشـارد دوكنز، وسـتيفن هوكنغ، وسـام هاريس، وكريسـتوفر هيتشـنز، ودانيال دينيت، وبيتر سنجر، ولورانس كراوس ...-، واتّبعت أقوالهم اتّباعًا أعمى؟؟؟

إنّ العقـل الرياضيّ والمنطقيّ يُحتِّـم عليك أن تقضي وقتًا طويلاً وجادًّا في البحـث عن الله,تعـالى، فإنّ إثبات مثل هذه القضية أو نفيها يسـتحقّ بذل الجهد الكبير، بل لو قضى الإنسـان عمره في البحث عن هذه القضيّة لمـا كان عابثًا، ولن يغني عنـك أولئك يوم القيامة شـيئًا -وتعامل مع يوم القيامـة كفرضية مُحتَملة ولو بنسـبة رياضيّة ضئيلة جدًّا- ولن يسـتنقذوك من العـذاب الأبديّ، فإنّ هؤلاء عندما يحشرون يـوم الفزع الأكبر ويرون العذاب، سـيتبرّأون منـك ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِيـنَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ**﴾[1]، كي لا يحملون وزرك فيعاقبون على وزرك وذنبك مع ذنوبهم وأوزارهم، وهيهات لهم ذلك (**لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ**

1 - سورة البقرة، الآية: 166.

كَامِلَـةً يَـوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَـاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[1].

بل حتى الشيطان سيتبرأ من أتباعه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُـمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُـمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]

وحينها أنت سـتقف لتتبرأ منهم لتقول: ﴿وَقَـالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَـرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِـكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِـمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِـينَ مِنَ النَّارِ﴾[3]، وتتمنى لو أنّ لك فرصة أخرى، وتقـول: (ربّ ارجعون)، وحينئـذ يأتيك الجـواب: (كلاّ)[4]، ولن ينفعك قولك: ﴿قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾[5].

● ثالثًا: منطق الاحتمال الرياضيّ والبحث عن وجود الله:

إنّ منطـق حسـاب الاحتمالات الريـاضيّ يقول: إنّ قيمـة الاحتمال لا تخضع لعامل واحد وهو «درجة الاحتمال» وحسـب، بل لا بدّ أن نلاحظ

1 - سورة النحل، الآية: 25.
2- سورة إبراهيم، الآية: 22.
3 - سورة البقرة، الآية: 167.
4 - سورة المؤمنون، الآيتان: 99-100.
5 - سورة الأحزاب، الآية: 67.

أيضًا «درجة المُحتمَل»، فمثلاً لو كان احتمال الربح في عمل اقتصادي هو 5 %، وفي عمـل آخر هو 10 %، ولكن مقدار الربح المُحتمَل الّذي يجنيه العمـل الأول هو 10000 دينار، والعمل الثاني هو 1000 دينار، فإنّ العمل الأوّل يرجح على الثاني بخمسـة أضعاف، مع أنّ درجة الاحتمال فيه 5%، وهي نصف درجة الاحتمال في العمل الثاني 10 %، ولكن ذلك لأننا نأخذ بعين الاعتبار قيمة المُحتمَل أيضًا، فتصبح المعادلة الرياضيّة كالتالي[1]:

$$500 = \frac{500000}{100} = \frac{5}{100} \times 10000$$

$$100 = \frac{10000}{100} = \frac{10}{100} \times 1000$$

$$500 \div 100 = 5$$

وإذا أخذنـا هذا المنطـق الرياضيّ بعين الاعتبـار، وأضفنا إلى جانبة أنّ البحث عن الله مع ما يتضمّنه الإيمان به من الاعتقاد بعالم ما بعد الموت والحياة الأبدية في العذاب أو النعيم، فإن غريزة دفع الضرر المُحتمَل تدفع الإنسـان للبحث حتى لـو كان احتمال التوصّل إلى نتيجـة يقينيّة ضعيف جـدًّا، ولكن بالرغم من ضعف هـذا الاحتمال، إلاّ أنّ قيمـة المُحتمَل لا نهائيـة، فيكون حاصـل ضرب قيمة الاحتـمال بقيمة المحتمـل -وهو لا نهائي- يفوق أيّ احتمال آخر، مقارنة به.

1 - انظر: اليزدي، دروس في العقيدة الإسلامية، ج1، ص35.

قال الشّاعر:

لا تحسبنَّ المجدَ تمرًا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصّبِرا

وقال آخر:

تُريدِين لُقْيان المعالي رخيصـةً ولا بدّ دون الشّهْـد مِـن إِبَرِ[1] النّحْلِ

1 - إِبَرِ: جمع إبْرة: وهي ما تلسع به.

المبحث الثاني:
هل يمكن إثباتُ الإلحاد الواقعيّ علميًّا؟

● أوّلًا: شبهة كون معيار صدق القضية هو الملاحظة الحسيّة:

تقدّم أنّ نظرية المعرفة عند الملحدين تقوم على أساس أنّ معيار صدق أيّ قضية هو بإمكانيّة التحقّق منها حسيًّا أو تجريبيًّا فقط، فقضايا العلوم الطّبيعيّة مثل: الماء يغلي على درجة حرارة مئة على مستوى سطح البحر، تملك خاصيّة التثبت منها بوساطة الملاحظة الحسيّة، وكلّ القضايا الأخرى التي لا تحمل قابلية التثبت منها تجريبيًّا، فهي قضايا وهميّة وكاذبة، ومنها: قضية: «الله موجود»، لأنّها تتحدث عن موضوع خارج نطاق الحسّ.

وقد تأثّر بهذا المنطق حتى بعض المتديّنين، فعندما تتحدّث معه عن أمور غيبيّة كالملائكة والمعجزات والوحي و... يفسّرونه تفسيراً طبيعيًّا وضمن قوانين المادة.

المنطق العلمي التجريبيّ -عند هؤلاء- يفترض وجود ترابط بين أمرين: المحسوسيّة والواقعيّة، فكلّ ما يمكن أن نحسّ به -أي أن نراه أو نسمعه أو نلمسه...- فهو واقعيّ، وكلّ ما لا يمكن أن ندركه حسيًّا فلا واقعيّة له، بل مجرد وهم اخترعه الذهن البشريّ.

وبناءً عليه، إذا كان اللّه في التصوّر الدِّيني غير قابل للرؤية (لا تدركه

الأبصار)[1]، فهذا يعني أنّ اللّه غير موجود، لأنّه غير محسوس.

وباختصار: إذا كان كلّ محسوس موجود، فلا شيء من اللامحسوس بموجود.

والخلاصة، لقد حاولت نزعة الإلحاد تصوير وجود تناقض جذريّ بين المنهج العلميّ - التجريبيّ والإيمان بالله.

يقول ريشتارد دوكنز: «لقد طرد دارون الإله من البيولوجيا، ولكنّ الوضع في الفيزياء بقي أقل وضوحًا، ويُسدّد هوكينج الضربة القاضية الآن»[2].

● ثانيًا: وجود الله، تعالى، يمكن إثباته علميًّا بوساطة المنهج التجريبي:

لكن، غفل الملحد عن أنّ قضية: «الله موجود»، وإن لم تكن قابلة للملاحظة الحسيّة، إلّا أنّه يمكن التثبّت منها بوساطةبوساطة المنهج التجريبيّ القائم على أساس منطق الاستقراء.

فقد وقع الخلط عند هؤلاء الملحدين المراهقين فكريًّا بين الملاحظة الحسيّة والمنهج التجريبيّ،أنّ المنهج التجريبيّ لا يقوم فقط على إثبات

1 - سورة الأنعام، الآية:103. عن الإمام علي بن أبي طالب -عليه السّلام-: « لا تراه العيون بمشاهدة العيان». (نهج البلاغة، مصدر سابق، ج2، ص99.) وعن الإمام الصّادق -عليه السّلام-، للزنديق حين سأله: ما هو؟ قال: «هو شيء بخلاف الأشياء... لا جسم، ولا صورة، ولا يُحسّ، ولا يُجسّ [لا يجسّ: أي لا يمسّ باليد، ويُحتمل كونها بمعنى: لا يُتفحَّص، يقال: جسستُ الأخبار ، أي تفحّصتُ عنها.]، ولا يُدرِك بالحواس الخمس ولا تدركه الأوهام». (الكليني، الكافي، ج1، ص83.)

2 - نقلاً عن: أبو لحية، نور الدين، الكون بين التوحيد والإلحاد، ص82.

ما يمكن ملاحظته حسيًّا، فكم من الأشياء التي لا نلاحظها حسيًّا في ذاتها، ومع ذلك تُثبتُ بوساطةبوساطة المنهج التجريبيّ، كقانون الجاذبيّة لنيوتن (F=G×(M1M2)/r2)[1] الـذي ينـصّ على أنّه يوجد قـوة جذب بين أي جسمين، تتناسب هذه القوة طرديًّا مع حاصل ضرب كتلتيهما، وعكسيًّا مع مربع المسافة بين مركزيهما، حيث لا نرى أو نلمس قانون الجاذبيّة بنفسه، ولكننا نشـاهد آثاره، بحيث لا يوجد تفسير معقول لهذه الآثار إلّا في ضوء هـذا القانون، وكذلك الحال فيما يتعلّق بإثبات وجود الله,تعالى، فإنّ الله, تعالى, وإن لم يمكن إدراكه حسيًّا في ذاته، إلّا أنّ هذا لا يعني أنّه لا يمكن إثباتـه تجريبيًّا، بل التجربة تُثبت وجود اللـه, تعالى, من خلال رؤية الآثار التي ليس لها أي تفسير منطقيّ إلّا في ضوء الإيمان بالصانع العالِم القادر.

وقد عرض السـيد الصدر الدليل التجريبيّ والاستقرائيّ على وجود الله, تعالى, على نحوٍ تفصيلي، تحت عنوان: «الاسـتدلال العلميّ لإثبات الله, تعالى»، في كتابه: «المُرسِل، الرسول، الرسالة»، وسنعرض ملخّصًا عنه في بعض المباحث اللاحقة.

فهنـاك مفارقـة عجيبة في حيـاة الملحدين بين منهج البحـث العلمي، والنتيجـة التي يعتقدون بهـا، وهي إنكار وجود الله,تعـالى، ففي اللحظة التـي كان ينبغي فيها أن يُعتمد الاسـتقراء والتجربة لدعم الإيمان بالله في اكتشـاف ما تحتويـه الطبيعة من إحكام هنـدسيٍّ وإتقان ذكيٍّ، اسـتُخدِم

1 - F هي قوة الجاذبية، وm1 وm2 هما كتلتا الجسمين، وr هي المسافة بينهما، وG هي ثابت الجاذبية.

الاتجـاه الحسي والتجريبي لضرب فكرة الإيمان بالله,تعالى، فما دام الله, تعالى, لا يخضع للخبرة الحسيّة، فهو غير موجود، أو لا أقل لا طريق إلى التثبـت من وجوده، هذا التناقض المصطنع بـين العلم -كمنهج قائم على الاستقراء والتجربة- والإيمان بالله، عاشه الشهيد الصدر كهمٍّ فكري، فدوّن أطروحته في كتابه: «الأسـس المنطقيَّة للاسـتقراء»، ليؤكد على حقيقة في غاية الأهمية، «هي أنّ الأسـس المنطقيَّة التي تقوم عليها كلّ الاستدلالات العلمية المسـتمدة من الملاحظـة والتجربة، هي نفس الأسـس المنطقيَّة التـي يقوم عليها الاسـتدلال على إثبات الصانع المدبّـر لهذا العالم، عن طريق ما يتصف به العالَم من مظاهر الحكمة والتدبير، فإنّ هذا الاستدلال كأي اسـتدلال علمي آخر، استقرائيّ بطبيعته، وتطبيق للطريقة العامة التي حددناها للدليل الاستقرائيّ في كلتا مرحلتيه.

فالإنسان بين أمرين:

فهو إمّا أن يرفض الاستدلال العلمي ككلّ.

وإمّا أن يقبل الاسـتدلال العلمي، ويعطي للاسـتدلال الاستقرائيّ على إثبات الصانع نفس القيمة التي يمنحها للاستدلال العلمي.

وهكـذا نبرهن على أنّ العلم والإيمان مرتبطان في أساسـهما المنطقي- الاسـتقرائيّ، ولا يمكـن مـن وجهة النظـر المنطقيَّـة للاسـتقراء الفصل بينهما»[1].

1 - الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء، ص469. وانظر: الطباطبائي، ومطهري، أصول الفلسفة والمنهج الواقعي، المجلد3، المقالة 14، ص203-301.

فالرسالة الواضحة للملحد هي، أنّه ينبغي التمييز بين ثلاثة قضايا:

الأولى: أنّ التجربة غير قادرة على إثبات وجود الله تعالى.

الثانية: أنّ التجربة تُثبت أنّ الله غير موجود.

والثالثة: أنّ التجربة تُثبت أنّ الله تعالى موجود.

لا يمكـن للملحـد أنّ يدّعي أن التجربة تثبت أنّ اللـه غير موجود، لأنّ التجربـة تتعهد بإثبات ما يقـع تحت دائرة أدواتهـا، ولا يمكنها النفي لما هـو خارج حدود أدواتها، فلو افترضنا أنّ الله موجود، إلاّ أنّ التجربة ليس بإمكانها نفيه، سواء أكان الله حسيًّا أم مجرّدًا عن الحواس.

فأقـصى ما يمكن أن يدّعيه هؤلاء أنّ التجربة لم تثبت وجود الله، ولكن قلنا سابقًا إنّ عدم إثبات شيء لا يعني إثبات عدمه.

ونحـن نقـول: إنّ التجربة -كما أكّد الشـهيد الصدر- تثبـت وجود الله تعالى.

● ثالثًا: مناقشة شـبهة الملحدين في التساوي بين المحسوسيّة والواقعيّة:

ولتتضح الفكرة السابقة على نحوٍ جليّ، نعرض بعض النقاط:

أوّلًا: ننطلـق مـن أنّ الله, تعالى, موجود مجرّد عـن المادة ومن عالم ما وراء الطبيعة، فوجهة نظر الملحدين قد تورّطت في مغالطتين كاذبتين:

- **الأولى:** حصر الوجود في نطاق عالم المادّة فقط.
- **والثانية:** حصر أدوات المعرفة البشريّة في التجربة والملاحظة الحسيّة.

وهاتـان القضيّتان مترابطتـان منطقيًّا، بحيـث تنبثق الثّانيـة عن الأولى

معرفيًّا، وذلك لأنّه إذا كان المعيار الحصري الذي يمكن اعتماده للتأكّد من صدق قضيّة ما هو قابليتها للملاحظة الحسيّة بوساطة البصر أو السمع أو اللمس، فمعنى ذلك أنّ كلّ ما لا يمكن أن يخضع للرؤية أو السمع أو اللمس فهو غير موجود.

مع أنّه لو افترضنا فرضًا أنّ هناك عالَم ما وراء الطبيعة والمادة، فالحكم عليه بأنّه موجود أو غير موجود، ليس من اختصاص الحواس، لأنّها منحصرة بما هو داخل دائرة الحسّ، وتَدَخُّلها فيما وراء عالم المادة سلبًا أو إيجابًا هو فضول منها.

وبعبارة أخرى: إنّ البحث عمّا وراء المادة خارج عن دائرة المنهج الحسيّ، فليس من حقّه أن يعطي رأيًا فيه لا إثباتًا ولا نفيًّا، بل يُعلِّق الحكم، ويتوقف، ويقول هو مجرد فرض لا يمكن إثباته.

ثانيًا: ننطلق فيها من افتراض أنّ الإله كائن ماديّ وطبيعيّ، فلو سُئل الشّخص الذي يعتقد بحصرية الملاحظة الحسيّة والحواس في إثبات مضمون قضية: هل هناك كائنات حيّة تعيش على الكواكب الأخرى في المجرات البعيدة؟ فلا يمكنه أن يجيب بالنفي، لأنه لا يملك دليلاً على عدم وجود الكائنات الفضائية الحيّة، كما أنّه لا يمكن أن يجيب بالإثبات، لأنه لا يملك معطيات حسيّة على ذلك، فأقصى ما يمكنه قوله: يمكن أن تكون موجودة ويمكن أن لا تكون موجودة، ففقدان الدّليل الحسي على شيء ليس دليلاً على عدم وجوده، فأقصى ما يفيده ذلك هو السّكوت، لا اتخاذ موقفٍ سلبيٍّ، أيّ أنّ المنطق يفترض أن يقول التجريبيّ -لأنّنا افترضنا أن الإله ماديّ وطبيعيّ-: لا أعلم إذا كان هناك إله أم لا، وليس من

حقّه القول: الله غير موجود، ففرق كبير بين عدم العلم، والعلم بالعدم.
فقضية: الله موجود، وإن لم تكن قابلة للإثبات بالحواس، لكنّها غير قابلة للنفي أيضًا، لأنّه لا يوجد دليل حسيّ على نفيها، فالمنطق يقتضي التوقف والسّكوت[1].

حوار بين الإمام جعفر الصادق (عليه السّلام) وملحد:

ويتأكّد هذا المنهج الّذي يهتمّ بالمقدِّمات المعرفيّة والمنطقيَّة في حوارهم, صلوات الله عليهم أجمعين, مع الزنادقة والملحدين، ويكفي الاطّلاع على كتاب الاحتجاج للشيخ الطبرسي لتتجلى هذه الفكرة بوضوح، ونكتفي برواية واحدة ذكرها الشيخ الكلينيّ (ره) عن حوار بين أحد الزنادقة المنكرين لوجود الله, تعالى, وبين الإمام الصادق عليه السلام.

قال عليه السلام للزنديق: أتعلم أنّ للأرض تحتًا وفوقًا؟

قال: نعم.

قال (ع): فدخلت تحتها؟

قال: لا.

قال: فما يدريك ما تحتها؟

قال: لا أدري، إلّا أنيّ أظنُّ أن ليس تحتها شيء.

فقال (ع): فالظن عجز، لم لا تستيقن؟!

1 - عن أمير المؤمنين عليه السّلام: «لو أنّ العباد حين جهلوا وقفوا، لم يكفروا ولم يضلوا». الواسطي، عيون المواعظ والحكم، ص416.
وعن الإمام زين العابدين عليه السّلام: «إن وضح لك أمر فاقْبَله، وإلّا فاسْكُتْ تَسلَم». المجلسي، بحار الأنوار، ج2، ص120.

ثم قال أبو عبد الله (ع): أفصعدت السماء؟

قال: لا.

قال: أفتدري ما فيها؟

قال: لا.

قال (ع): عجبًا لك، لم تبلغ المشرق، ولم تبلغ المغرب، ولم تنزل الأرض، ولم تصعد السماء، ولم تجز هناك، فتعرف ما خلفهن، وأنت جاحد بما فيهنّ، وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟!

قال الزنديق: ما كلّمني بهذا أحد غيرك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: فأنت من ذلك في شكٍّ، فلعله هو، ولعلّه ليس هو؟

فقال الزنديق: ولعل ذلك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: أيُّها الرجل! ليس لمن لا يعلم حجّة على من يعلم، ولا حجة للجاهل يا أخا أهل مصر! تفهم عنّي فإنّا لا نشكُّ في الله أبدًا»[1]...

ثم أقام له الإمام عليه السّلام الأدلة على وجود الله,تعالى، فآمن الزنديق، وأخذه هشام بن الحكم فعلّمه أصول العقيدة والدِّين.

● **رابعًا: التجربة العلميّة تحتاج إلى المعرفة العقليّة:**

إذا أقمت دليلاً عقليًّا أو فلسفيًّا على وجود الله,تعالى، يبادر المُلحد

1 - الكليني، الكافي، ج1، ص73-74.

ويقول لك: أنا لا اعتقد بالفلسـفة العقليّة والمنهج الفلسفيّ، فالفلسفة من مخلّفـات الحضارات القديمـة التي لم تصل إلى العلـم التجربة. أعطني دليلاً علميًّا على وجود الله؟

لكن غفل هذا المسـكين، عن أنّ التجربة العلميّـة التي تعتمدها العلوم التجريبيَّة لا يمكن أن تصل إلى صياغة قوانين علميّة إلاّ بالاستعانة بالقواعد العقليّـة والمنطقيَّة، ولـولا القواعد العقليـة ينهار صرح العلـوم الطبيعية والتجريبيَّة. فأدوات المعرفة الإنسـانيَّة في الكشـف عن الحقيقة والتثبّت من صدق القضايا لا تنحصر بالتجربة والملاحظة الحسـيّة فقط، بل الأداة الأساس هي العقل، والمقصود بالعقل القوة المعرفيّة التي يتمكّن الإنسان بواسـطتها من إدراك بعض المعارف القبليّة المستقلة عن التجربة، فليست التجربة والملاحظة الحسـيّة هي الأسـاس العام الوحيد الذي يموّن ذهن الإنسان بكلّ ألوان المعرفة البشريّة.

ولتعميـق الفكـرة، وبالعودة إلى مـا كنا وعدنـا به من مناقشـة منهجية تفكير الفلسـفة الوضعيّة، التي تقوم على أطروحة أنّ المعرفة العلميّة التي تسـتند إلى الملاحظة الحسيّة والاستقراء، وحدها يمكن أن تمدّنا باليقين، أو تتمتع بقيمة منطقيّة، فالمناقشـة الأسـاس التـي تتوجّه إلى منهج تفكير الوضعية هـو أنّ ادعاءها بأنّ المفاهيم الدينية والفلسـفيّة فارغة وليس لها مضمون ومعنى هو واضح البطلان، لأنّه لو كانت الألفاظ الدالة على هذه المفاهيـم لا معنى لها لها إطلاقًا لم يكن بينها وبين الألفاظ المهملة فرق، ولأصبح نفيها وإثباتها سـواء، بينما نحن نلاحظ أن اعتبار الله علّة للكون مثـلاً ليس مثل اعتبار عكس ذلك، وحتى الـذي ينكر أصل العليّة فإنه قد

أنكر قضية يُدرك مفهومها[1].

كـما أنّه بنـاء على الفلسـفة الوضعيّة «لا يبقى مـكان لأي قانون علميّ بعنـوان كونه قضيـة كليّة يقينية وضروريّة، وذلـك لأنّ هذه الخصائص لا يمكن إثباتها حسيًّا...».

كما أنهم يتورّطون بطريق مسـدود بالنسـبة إلى المسـائل الرياضيّة التي تعالـج بوسـاطة المفاهيم العقليّـة، أي بنفس تلك المفاهيـم التي يعدُّها هؤلاء لا معنى لها.

ثغرة التفكير الاستقرائيّ القائم على الملاحظة الحسيّة:

فالملاحظة الحسيّة أو التفكير الاستقرائيّ الذي يقوم على تتبع مجموعة من الجزئيَّات للوصول إلى قانون كليّ، مثل أن يرى الإنسـان أنّه إذا تناول هذا النوع من الأعشـاب فإنّه يسـبب الإسـهال مثلاً، ثم يرى أنّه في المرة الثانيـة كذلك، وفي المرة الثالثة كذلك، وهكذا إلى عشر مرات مثلاً، فمع أنّه لم يجرّب هذا النوع من الأعشاب إلّا عشر مرات مثلاً لكنه يصدر حكم عام، ويقول: تناول هذا النوع من الأعشاب يسبب الإسهال.

لكن عند التحليل، يلاحظ المنطقيّ أنّ الاستقراء ليس مجرد عملية تعداد كمّـي لحالات جزئية وخاصة، فهذا لا يفيد العلوم الطبيعية المطلوب فيها التقنين العلمي شـيئاً، بل هو اسـتدلال يقوم عـلى فحص الجزئيات بنحو تكشـف لنا عن نتيجة يمكـن صياغتها بصورة قانون عـام، يصطلح عليه:

1 - اليزدي، المنهج الجديد في تعليم الفلسفة، ج1، ص.

التعميم الاستقرائيّ.

والمُلاحَظ، كما تقدّم في مثال الأعشاب أنّ نتيجة الاستقراء هي دائماً قضية عامة تتجاوز ميدان الملاحظة الحسيّة والتجربة، فتكون أكبر من المقدمات التي ساهمت في تكوينها، لأنّها تصدق على حالات أخرى لم تتم تجربتها، فمثلاً هذا النوع من الأعشاب الذي سبب الإسهال في المرة السابقة، لا يقدم الإنسان على تناوله في المرة اللاحقة وغيرها من مئات المرات التي قد يواجهها، مع أنّه لم يجرّبها، فلماذا امتنع عن تناولها مع أنّه لم يجربّها؟ ليس ذلك إلاّ لأنه قد كوّن في عقله قانونًا عامًا من أنّ تناول هذا النوع من الأعشاب يسبب الإسهال، مع أنّه لم يجرب كل أفراد هذا النوع من الأعشاب الموجودة في العالم، لكنه مع ذلك أصدر حكمًا كليًّا، هذا الحكم الكلي لم يأخذه من بعض الجزئيات التي جرّبها، لأنّها لا يحقّ له أن يصدر حكمًا عامّا فقط بسبب بعض الحالات التي جرّبها، إذ لعله في الحالات الأخرى لا يصاب بالإسهال، فمن أين أتى بهذا القانون القام؟

مهما بلغت الحالات المُستقرَاة من الكثرة لن تصل إلى حدّ المسح الشامل (الاستقراء التام)، إذ يمنع عدم ملاحظة سائر الجزئيات، التي سبقت في الماضي، أو التي ستأتي في المستقبل، فما هو المبرّر المنطقي لاتخاذ التجارب التي أجريتها سبباً كافياً للاعتقاد بصدق النتيجة الشاملة للحالات التي لم تخضع للاختبار الحسيّ وما لا يتناهى من التطبيقات[1]؟!!.

يقول العلامة الطباطبائي: « إنّ التَّشريح مثلاً، إنّما ينال من الإنسان أفراداً

1 - رسل، مشكلات الفلسفة، ص67-70.

معدودين، قليلين أو كثيرين، يعطي للحسّ فيها مشاهدة أنّ لهذا الإنسان قلباً وكبداً مثلاً، ويحصل من تكرارها عدد من المشاهدة يَقلُّ أو يكثر، وذلك غير الحكم الكلي في قولنا: كلّ إنسان فله قلب أو كبد، فلو اقتصرنا في الاعتماد والتعويل على ما يستفاد من الحس والتجربة فحسب، من غير ركون على العقليات من رأس، لم يتمّ لنا إدراك كلي، ولا فكر نظري، ولا بحث علمي»[1].

بينما لا يواجه المنطق العقلي عقدة في معالجة مشكلة الاستقراء، إذ يمكنه حلّها من خلال القوانين العقليّة القائمة على أساس: القبليات العقلية -كقانون التناقض، والعلية، والأمثال، ونفي تكرر المصادفة-، والمنهج الاستنباطي في التفكير[2]، المبني على التعليل.

ولا نريد أن ندخل على نحوٍ تفصيليّ ومعمّق حول هذه النقطة، لأنّها ليست مورد بحثنا، وإنّما ما نريد أن نصل إليه أنّه لو آمنا فقط بالملاحظة الحسيّة كوسيلة وحيدة لتموين الذهن البشريّ بالمعلومات، ولم نعتمد على العقل والعلل والقوانين العقلية والبديهيات العقليّة لما استطعنا بناء أي قانون كليّ حتى في العلوم الطبيعية كالطّب وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم الفلك و... إلخ.

فمع فرض إنكار المنطق العقلي لا يكون ثمة قيمة منطقية لأي قضية طبيعية أو قانون علميّ، لأنه لا يمكن عزل إنتاج المعرفة في العلوم الطبيعية عن بعض القضايا الأوّليّة والضرورية.

---

1 - الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج1، ص46.

2 - انظر: ابن سينا، الشفاء- المنطق، البرهان، ص95. والطباطبائي، محمد حسين، تقديم وتعليق مرتضى مطهري، أصول الفلسفة والمنهج الواقعي، ج1، ص432.

أ. قانون التناقض قبل التجربة:

فلا يمكن للذهن البشريّ التثبت من صحّة القضايا الحسيّة والتجريبيَّة نفسها إلاّ بوساطة الاستعانة بالقضايا العقليَّة، فما لم يؤمن الإنسان مثلاً بقانون استحالة اجتماع النّقيضين[1] «القضيتان المتناقضتان لا تصدقان معًا» وهو قضيّة عقليَّة أوليّة بديهيَّة، لا يمكنه الاعتقاد بصدق أيّ قضيّة تجريبيّة، لأنّه مع رفض قانون التناقض، يصحّ حينها الاعتقاد بالمتناقضين، فما المشكلة في الاعتقاد بصدق قضيّة: «الماء يغلي على درجة حرارة مئة على مستوى سطح البحر»، والاعتقاد بصدق نقيضها أيضًا: «الماء لا يغلي على درجة حرارة مئة على مستوى سطح البحر»؟!! وما المانع -مع اجتماع شروط التناقض- من أن تكون قضيّة «هذه الحديدة تتمدد بالحرارة» صادقة، وقضيّة «هذه الحديدة لا تتمدّد بالحرارة» صادقة أيضًا؟!!

وكذلك، إذا لم يؤمن المُلحد بالمنهج العقليّ واعتمد فقط على المنهج التجريبيّ، فما المانع لديه من صدق القضيتين التاليتين: «الله موجود» صادقة، و» الله غير موجود» صادقة، فالمؤمن صادق في اعتقاده بمعنى أنّ اعتقاده بوجود الله مُطابِق للواقع، والمُلحد صادق في اعتقاده، بمعنى أن اعتقاده بعدم وجود إله مطابق للواقع.

إنّ العلم بصدق القضيّة الأولى إنّما يلزم عنه العلم بكذب القضيّة الثّانية إذا سلّمنا بقانون التناقض، وإلاّ لأمكن تصادقهما معًا.

1 - نقصد بالتناقض هنا معناه الأعم الذي يشمل القضايا المتناقضة والقضايا المتضادة بالمعنى المنطقي.

هل يُمكن أن يعتقد المُلحد بمثل ذلك؟ لِمَ لا؟

إذا اعتقد الملحد باستحالة ذلك، فهذا الاعتقاد ليس إلّا لأنّه يعتقد بقانون التناقض على نحوٍ قبليّ ومستقل عن التجربة، لأنّ قانون التناقض عقليّ بديهيّ وليس قانونًا تجريبيًّا، فهناك معارف أوّليّة مستقلة عن التجربة ولا تثبت بوساطة التجربة بل التجربة تحتاج إليها لصدق نتائجها.

ب. قانون الاطّراد في الطبيعة قبل التجربة:

وكذلك الأمر بالنسبة إلى قانون الأمثال[1]، فما لم نعتقد مثلاً أنّ الأفراد المشتركة في الطبيعة لها الحكم ذاته من حيث تلك الطبيعة، لما استطعنا

1 - قانون الأمثال: يعني أنّه لو كان هناك فردان -أو أكثر- مشتركان في ماهية نوعيّة واحدة كالإنسانيّة...، بمعنى أنّه لو سُئِل عن الأول ولنفترضه «محمد»: ما هو؟ فكان الجواب: إنّه إنسان، وسُئِل عن الثّاني ولنفترضه «علي»: ما هو؟ فكان الجواب: إنّه إنسان، فبما أنّ عليه وإنسان متّحدان في الحقيقة ومشتركان في الماهية الواحدة، فيحكم العقل بأنّه إذا كان هناك صفة تُنسب إلى محمد باعتبار كونه إنسانًا مثل أنّه حيّ أو حسّاس أو مُدرك للكليّات، فينبغي أن تُنسب هذه الصّفة بعينها إلى علي باعتبار كونه إنسانًا، فيكون عليٌّ أيضًا حيًّا وحسّاسًا ومُدركًا للكليّات... وهذا معنى هو مفاد قانون الأمثال، أيّ ما يصحّ حمله على فرد من أفرادَ ماهية كصفة الحسّاس حينما نقول: محمد حسّاس، يصح حمله على فرد آخر من أفراد تلك الماهية فنقول: عليّ حسّاس... وهكذا. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا القانون مختصّ بالصفات التي تكون من ذاتيات الماهيّة أو العوارض اللازمة التي يستحيل أن تنفك عن الماهية دون الصّفات العرضية المُفارقة التي قد تختلف من فرد إلى آخر من الماهية نفسها، فإذا كان محمدٌ طويلاً أو أبيضَ أو وزنه 60 كغ أو... فلا يعني أنّ عليًّا ينبغي أن يكون كذلك، لأنّ هذه الصّفات عرضيّة مُفارِقة تختلف من إنسان إلى آخر.

تعميم الحكم الذي اكتشفناه بالتجربة إلى غير الأفراد الواقعة تحت الملاحظة الحسيّة.

فمثلاً: إذا لمسنا النّار وشعرنا بالحرارة واحترقت يدنا، ثم لمسنا نارًا أخرى فشعرنا بحرارتها واحترقت يدنا، وتكرّرت منّا هذه الحالة عشرات المرّات، فمهما تكثّرت الأمثلة وتعدّدت دائرة الملامسة الحسيّة للنار يبقى عدّد النّيران التي جربناها محدودًا بالقياس إلى النّيران الموجودة في العالَم، فكم نار جرّبنا عشرة؟ خمسين؟ مئة؟ ألف؟ لكن عدد النيران الموجود في عالم الطّبيعة بالملايين، ومع ذلك، إذا شاهدنا نارًا مشتعلة من بعيد نقول: «هذه النّار محرقة»، ونجتنب الاقتراب منها، فكيف يمكننا أن نحكم على هذه النّار بأنّها محرقة مع أنّنا لم نجرّبها ونلمسها لنعرف أنّه مُحرقة أم لا قبل أن نلاحظها حسيًّا؟!! ليس ذلك إلّا بوساطة قانون الأمثال، حيث يحكم العقل بأن هذه النّار محرقة لأنّها تشابه وتماثل تلك النّار التي جربناها من قبل، وهذا حكم عقلي أوّليّ لا علاقة له بالتجربة، أي أنّه ليس قانون تجريبيّ، بل هو قانون يسبق التجربة وتحتاجه التجربة في الوصول إلى النتائج المطلوبة، فما لم يؤمن الإنسان قبل التجربة بأن الأفراد المشتركة في طبيعة واحدة لها نفس الحكم وينطبق عليها القانون نفسه، لما قام أي صرح علميّ من العلوم الطبيعيّة، فلماذا أقصد مثلاً تناول حبّة الدواء (أ) لألم المعدة ولا آخذها لألم الكتف، مع أنّني لم أجرّبها، بل ما تمّ تجريبه هو حبّة دواء أخرى مشابهة لها في التركيبة والطبيعة؟ ليس ذلك إلّا للاعتقاد القبليّ والمسبق قبل التجربة بقانون الاطّراد في الطبيعة وقانون الأمثال.

المبحث الثالث:
هل يمكن وجودُ الملحد الواقعي فطريًّا؟
وهل يمكن ذلك في ضوء نصوص الوحيّ الإلهيّ؟

سنحاول في هذا المبحث إثبات استحالة وجود الملحد الواقعيّ من ناحية فطريّة ومن ناحية نصوص الوحي الإلهيّ.

ونقصد باستحالة وجود الملحد الواقعيّ فطريًّا: أنّنا إذا حلّلنا طبيعة الفطرة الإنسانيَّة، نعثر على الإقرار بوجود الله, تعالو كمحمول تحليليّ فيها، أي أنّ الشعور الديني متأصّل في الذات البشريّة ومستبطَن فيها، وكلّ من يدّعي خلاف ذلك فهو إما كاذب، وإمّا متوهّم، وإما مريض نفسيًّا.

● **أوّلًا: مفهوم الفطرة:**

جُبِل الإنسان في داخله على مجموعة من المشاعر والعواطف والرغبات والميول والغرائز... التي تمكِّنه من تأمين حاجاته الحياتية الماديّة والمعنويّة وتحقيق أهدافه، كالغريزة الجنسيّة، التي وظيفتها أن تساعده على بناء الأسرة واستمرار النوع البشريّ، وكذلك غريزة الدفاع عن الذات، فإذا رأى الإنسان أي خطر يقترب منه يدافع عن نفسه، وكذلك غريزة حبّ الاستطلاع والتعرف والاكتشاف التي تحفّز الإنسان على طلب العلم والمعرفة، ... إلخ، فهذه الغرائز والميول تساعد الإنسان على تأمين

حاجاته في الحياة.

وهــذه الميول والغرائز هي التي نســمّيها: «الفطرة»، فالفطرة هي الكيفية الخاصة التي وُجِد الإنسان عليها.

ومن هذه الميول الفطريّة التي يشــعر الإنســان بهــا في داخله هي حالة الانجذاب نحو قوة عظمى في هذا الكون، وهي ما نسميه: الشّعور الدينيّ.

● ثانيًا: معايير قياس الشعور الفطريّ:

هل هناك معايير نستطيع بوساطتها أن نعرف أنّ هذا الشعور الذي يعيشه الفرد منّا هو فطري أم غير فطري؟ فلعل بعض المشاعر تختلط علينا، فنظنّ شــعورًا ما بأنّــه فطري وهو لا يكون كذلــك، أو العكس، فكيف نميّز بين الشــعور الفطريّ بأصل الخلقة وبين غيره من الميول والرغبات المُكتَسبة التي نشعر بها نتيجة التربية والتثقيف والتعليم والتأثر بالمحيط الاجتماعيّ والبيئة الجغرافية التي نعيش فيها؟

الجواب: نعم، هناك معايير وموازين يمكن بوســاطتها تحديد الشــعور الفطريّ وتمييزه عن غيره، منها:

1 - المعيــار الأوّل (الــضرورة دون الاختيار): الشــعور الفطريّ مغروس في داخل الإنســان بأصل الخلقة بنحو قهريٍّ واضطــراريٍّ، فهو ليس أمرًا اختياريًّــا خاضعًا لقرار الإنســان وإرادته الحرّة، فالإنســان مثــلاً يختار أن يعمــل في هذه المهنة أو تلك، ولكنه لا يختار أن يغرس في نفســه الغريزة الجنسية.

2 - المعيار الثاني (اللااكتســاب وعدم القابليّة للتربية والتعليم): الشعور

الفطريّ لا يحتاج فيه الإنسان إلى اكتسابه بوساطة التعليم والتعلّم والتربية والتثقيف، فمثلاً القدرة على النطق قوة فطريّة في الإنسان، وكذلك قوة التفكير.

وهذا لا يعني أنّ تنمية الشعور الفطريّ لا تحتاج إلى التربية والتعليم، فالإنسان وإن كان يملك بالفطرة قوة النطق، ولكنه يحتاج إلى تعلّم لغة البيئة التي يعيش فيها ليعرف كيف ينطق بالكلمات، فالمجتمع أو الأهل أو المدرسة لا يمنحون الطِّفل أصل القدرة على الكلام، بل يعلّمونه كيف يتكلّم على نحوٍ صحيح، فلو أنّ فردًا من أفراد البشر كان بأصل الخلقة عاجزًا عن الكلام كالأبكم، فلا يمكننا بالتربية والتعليم منحه القدرة على الكلام.

وبهذا يتضح أنّه إذا كان هناك شعور فطريّ فهذا لا تعني أنّ الإنسان يستغني عن التربية والتعليم في تنمية هذا الشعور الفطريّ، فالتربية والتعليم يعملان على تنمية الشعور الفطريّ من دون إيجاده في النفس البشريّة.

3 - المعيار الثالث (العموم والاشتراك): الشعور الفطريّ كلِّيٌّ وعامٌّ لجميع أفراد البشر في كلّ زمان ومكان، فأي شعور فطري هو ثابت على امتداد التاريخ وفي كل حضارة ومنطقة وبلد، فهو مشترك بين الناس جميعًا، فكلّ أفراد النوع الإنسانيِّ يتحرّكون بالفطرة لدفع الضرر عن أنفسهم، فإذا رأى الإنسان حيوانًا مفترسًا كالأسد يهاجمه نراه يلوذ فطريًّا بالفرار.

4 - المعيار الرابع (الثبات وعدم التغيّر): الشعور الفطريّ غير قابل للتبدل والتغير من حال إلى حال، فهو ثابت ودائم ومستمر. نعم، قد تلعب بعض الظروف والعوامل في دفن المشاعر الفطريّة في منطقة الغفلة، ولكن

سرعان ما تطفو على السطح عند أي مُنبّه يوقظ في داخل الإنسان ذلك الشعور.

● **ثالثًا: تطبيق مؤشّرات الفطرة ومعاييرها على قضية: الله موجود:**

والآن لنقمْ بتطبيق هذه المعايير الأربعة على قضية: الله موجود، نحن ندّعي بأنّ: الشعور بالله, تعالى, والانجذاب إليه فطريٌّ داخل النفس البشريّة، بمعنى أنّ الإنسان مركّب بكيفية خاصة ينجذب معها إلى القوة العظمى في الكون.

والدليل على ذلك: أنّنا لو تتبّعنا عقائد الشعوب المختلفة على امتداد تاريخ البشريّ الطويل، سواء أكانت الحضارة التي ينتمون إليها ماديّة أم روحيّة، وثنيّة أم موحِّدة... نجد أن البشريّة بمختلف أديانها ومذاهبها وتياراتها تعيش انجذابًا خاصًّا إلى عالم الألوهية والعبادة والشعور الدينيّ.

ولو ركّزنا النظر على النقطة المشتركة بين هذه العقائد وأغفلنا النظر إلى التفاصيل، نلاحظ أنّ فكرة القوة العظمى في هذا الكون ، ليس تجسيدًا لعقيدة دينيّة أو إسلامية خاصّة، بل هي عقيدة عامة عند جميع أبناء البشر.

فهذه المُحدّدات: (عالمية الشعور بوجود قوة عظمى في هذا الكون عند الأفراد، وفي كل زمان ومكان، بنحو غير قابل للتبديل والتغيير) تدلّ بوضوح على فطرية الإيمان بوجود الله والشعور به.

يقول معجم لاروس للقرن العشرين: «إنّ الغريزة الدينيّة مشتركة بين كلّ الأجناس البشريّة، حتى أشدها همجيّة، وأقربها إلى الحياة الحيوانيّة...

وإنّ الاهتمام بالمعنى الإلهيّ وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية»[1].

فنحن نعتقد أنّ الله, تعالى, خلق النفس البشريّة بكيفيّة خاصّة، تعيش الجذبة إلى الله, تعالى, والشعور بعظمته وقوته، وكما أنّ النفس البشريّة مصمّمة بطريقة تنجذب فيها إلى الله,تعالى، كذلك هي مُصمَّمة على أنّ المجذوب إليه بحسب الفطرة هو واحد لا متعدّد، فالإلحاد والشرك والتثليث... على خلاف مقتضى الفطرة البشريّة السليمة. وهذا ما أكّده القرآن الكريم ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * ... وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[2].

وكذلك أحاديث النبيّ وأئمة أهل البيت, عليهم السلام، منها:

■ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «كلّ مَوْلُودٍ يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه أوْ يُنَصِّرَانِه، أوْ يُمَجِّسَانِه...»[3].

■ وعن الإمام الصادق, عليه السلام، قال: «قال موسى بن عمران (ع): يا ربِّ، أيّ الأعمال أفضل عندك؟ فقال (عزّ وجلّ): حبّ الأطفال، فإنيّ فطرتهم على توحيدي، فإنْ أمَتُّهُم أَدْخَلْتُهم برحمتي الجنّة»[4].

1 - نقلاً عن: دراز، عبد الله، الدين- بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص83.
2 - الروم: 30-31.
3 - البخاري، صحيح البخاريّ، ج2، ص104. وروي عن الإمام الصادق عليه السلام، الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج2، ص49، ح1668.
4 - البرقي، المحاسن، ج1، ص293.

فـإذا وجدنا هـذه المُحـدِّدات الأربعـة (الـضرورة، العمـوم، الثبات، اللااكتساب) في شعور ما، فنعرف أنّه فطري.

● **رابعًـا: معرفـة الله الفطريّة في القـرآن وأحاديث أهل البيت, عليهم السّلام**

تقدّم ما يفيد في الفقرات السـابقة أنّ الروايات تؤكّد معرفة الله الفطريّة، ونزيد عليها:

1. ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيرَ مُشرِكِينَ بِهِۦ﴾[1]

سـأل زرارة بـن أعـين الإمـام الصـادق عن هـذه الآيـة، فقـال (عليه السـلام):»الحنيفيّة من الفطرة التي فطـر اللّه النّاس عليها، لا تبديل لخلق اللّه. قال: فطرهم على المعرفة به.

2. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[2]

وعـن الإمام الصـادق, عليه السـلام: قال رسـول اللّه, صـلّى اللّه عليه وآله وسـلّم: كلّ مولود يُولَد على الفطرة، يعنـي المعرفة بأنّ اللّه عزّ وجلّ خالقه، كذلك قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[3].

3. ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[4]

1 - سورة الحج، الآية: 31.
2 - سورة لقمان، الآية: 25.
3 - الكليني، الكافي، ج2، ص12.
4- سورة الروم، الآية: 30.

وعن زرارة، سـأل الإمـام الصادق عن الآية، فقال عليه السـلام: فطرهم على معرفة أنّه ربّهم، ولولا ذلك لم يعلموا -إذا سُـئلوا- من ربّهم، ولا من رازقهم»[1].

4. ﴿وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِـهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾[2].

عن الأصبغ بن نباتة، عن علي، عليه السـلام قال: أتـاه ابن الكوّاء (عبد الله بن عمرو اليشكري، من الخوارج) فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن الله تبارك وتعالى: هل كلَّم أحدًا من وُلْد آدم قبل موسى (عليهما السّلام)؟

فقـال علي (ع): قد كلَّـم الله جميع خلقه، برّهـم وفاجرهم، وردّوا عليه الجواب.

فثَقُل ذلك على ابن الكوّاء، ولم يعرفه، فقال له: كيف كان ذلك؟ يا أمير المؤمنين.

فقـال (ع) له: أوَمَا تقرأ كتاب الله! إذ يقول لنبيه (ص): ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ﴾، فقد أسـمعهم كلامه، وردّوا عليه الجواب كما تسمع في قول الله - يا بن الكوّاء -: (قالوا بلى).

فقـال لهـم: إنيّ أنا اللـه لا إله إلا أنا، وأنـا الرّحمن، فأَقـرُّوا له بالطّاعة

1 - البرقي، المحاسن، ج1، ص241.
2 - سورة الأعراف، الآية: 172.

والربوبيّة، وميَّز الرّسل والأنبياء والأوصياء، وأمر الخلق بطاعتهم، فأَقرُّوا بذلك في الميثاق، فقالت الملائكة عند إقرارهم بذلك: شهدنا عليكم يا بني آدم أن تقولوا يوم القيامة إنّا كُنّا عن هذا غافلين»[1].

وفي الآية عن أبي جعفر الباقر، عليه السلام: «... فقال الله: يا آدم، هؤلاء ذريّتك، أخرجتهم من ظهرك، لآخذ عليهم الميثاق لي بالربوبيّة، ولمحمد بالنبوة، كما آخذه عليهم في السماء (...)

قال آدم: يا ربِّ، فما تريد منهم في الميثاق؟

قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وأن لا يشركوا بي شيئًا...**﴾[2].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) في الآية: «ثَبتت المعرفة في قلوبهم، ونسوا الموقف، وسيذكرونه يومًا، ولولا ذلك لم يدرِ أحدٌ من خالقه ولا من رازقه»[3].

وعن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السّلام في الآية: قال عليه السلام: «كان ذلك معاينة لله، فأنساهم المعاينة، وأثبت الإقرار في صدورهم، ولولا ذلك ما عرف أحدٌ خالقه ولا رازقه، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾[4] [5].

وقد أطلقت بعض الآيات على «الفطرة التوحيديَّة» اسم: «صبغة الله»،

1 - العياشي، تفسير العياشي، ج2، ص41.
2 - المصدر نفسه، ص219.
3 - البرقي، المحاسن، ج1، ص241.
4 - سورة لقمان، الآية: 25.
5 - البرقي، المحاسن، ج1، ص281.

قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ﴾[1].

فالإنسان مخلوق بلون خاصّ من الميول والمعارف الممزوجة في جوهر ذاته، وليس كائنًا بلا لون وبلا صبغة، ومن أهمّ الميول الفطريّة التي تلوّنت وصُبغت بها نفس الإنسان بأصل التكوين، هي المعرفة بالله تعالى وتوحيده[2].

في المحصّلة يتبيّن مما تقدّم، أنّ:

1. معرفة أصل وجود الله، تعالى، فطريّة مجبولة في داخل الإنسان بأصل الخلقة والتكوين.

2. التوحيد -بمعنى الانجذاب إلى كون الخالق والرازق والمغيث والقادر على تلبية الحوائج هو واحد- أمر فطري في النفس البشريّة.

3. هذه المعرفة «الفطريّة التوحيديّة» ليست من سنخ المعارف الاختيارية التي تحصل بالكسب والتثاقف والتعليم، بل هي معرفة قهرية اضطراريّة ثابتة مستمرّة الحضور، وبالتالي لا يمكن انتزاعها من النفس البشريّة. عن الحسن بن زياد قال: «سألت أبا عبد الله, عليه السّلام ,عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[3]، هل للعباد بما حبّب صنع؟

قال عليه السلام: لا، ولا كرامة»[4].

---

1 - سورة البقرة، الآية: 138.

2 - يراجع حول روايات صبغة الله: الكليني، الكافي، ج2، ص14.

3 - سورة الحجرات، الآية: 7.

4 - البرقي، المحاسن، ج1، ص199.

● **خامسًا: ادّعاء الإلحاد الواقعي: أكذب أم وهمٌ أو مرضٌ نفسيّ؟**

وفي هذا السياق، نلاحظ أنّه مهما حاول الإنسان دسّ الفطرة التوحيديّة في تراب الانغماس في اللذائذ الماديّة والمتعة الحسيّة، فإنّها تطفو على السطح وتظهر بين حين وآخر، خصوصًا في لحظات الشدائد والضعف والانكسار والشعور بالخوف والحاجة و... والتي تشكّل منبّهات لإثارة الفطرة وإيقاظها من غفلتها، بنحو لا يستطيع الإنسان أن يحافظ على عنصر الغفلة عن معرفة الله دائمًا ﴿**أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾.

فالمُلحد يغفل عن وجود الله، فيُنكره، وفي الوقت عينه، نراه عندما تحلّ به المصائب والبلايا وتتقطع به الأسباب، يلجأ إلى الله تعالى.

وهذا ما ورد في القصّة المشهورة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال له رجل: «يا ابن رسول اللّه، دلّني على اللّه ما هو؟ فقد أكثر عَليّ المجادلون وحيَّروني.

فقال له: يا عبد اللّه، هل ركبت سفينة قط؟

قال: نعم.

قال: فهل كُسِرت بكّ حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟

قال: نعم.

قال: فهل تعلَّق قلبُك هنالك أنّ شيئًا من الأشياء قادر على أن يُخلصّك من ورطتك؟

قال: نعم.

قـال الصّادق عليه السّـلام: فذلك الشّيء هو اللّـه، القادر على الإنجاء حيث لا مُنجي، وعلى الإغاثة حيث لا مُغيث»[1].

وورد في هذا السـياق، عن الإمام الحسن العسـكريّ عليه السّلام: «اللّه هو الذي يَتألَّه إليه عند الحوائج والشّـدائد كلّ مخلوق عند انقطاع الرّجاء من كلّ مَنْ دونه وتَقطُّعِ الأسباب من جميع من سواه»[2].

فالعقل السـليم يحكم باسـتحالة وجـود المُلحد الواقعي مـن الناحية الفطريّـة، لأنّ الإلحاد عبارة عن إنكار وجـود الله,تعالى، والإنكار يمكن أن يقـع على شيء هـو خارج دائرة الفطـرة والاضطرار، أمّـا ما هو فطري واضطـراريّ فإنّ إنـكاره مكابرة وجحود وعناد، وبمجرد اللسـان واللفظ، كالخائـف الذي ينكر خوفه ليثبت أنّه شـجاع، أو كالذي يحب فتاة وينكر حبّها دفعًا للحرج...

والمُشـاهَد من حال الملحد أنّه لا ينفي وجود اللّه تعالى نفيًا مُطلَقًا في جميع مراحل حياته وأحواله، بل يمرّ الملحد بلحظات يشـعر فيها بجذبة العشق الفطريّة إلى اللّه تعالى خصوصًا في حالات عجز الأسباب الماديّة عن تحقيق مطلوبه -كما تقدّم سـابقًا-، وهـذا ما يحدِّثنا عنه القرآن الكريم في أمثلة عديدة، كقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَـيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُـمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْـنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُـوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِـفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَـكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّه**

1 - الصدوق، معاني الأخبار، ص5.
2 - الصدوق، التوحيد، ص231.

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

ولاحظنا سابقًا أيضًا جواب الإمام الصّادق عليه السّلام على الذي سأله: دلني على الله ما هو؟ بما يشابه هذا المنطق القرآني، فكلّ إنسان في لحظات الخطر والخوف والألم المقرونة باليأس عمّا في يديه من الوسائل الطبيعيّة والأسباب الماديّة، تتنبّه فطرته لوجود اللّه تعالى القادر على الإنجاء والإغاثة و...

فنفي الملحد لوجود اللّه تعالى في حقيقة الأمر هو إنكار ظاهري، وليد عوامل نفسيّة كثيرة، منها:

■ الميل إلى الراحة والتحرّر من الالتزامات والمسؤوليّات التي يفرضها الانتماء الدِّيني ﴿**بل يريد الإنسان ليفجر أمامه* يسأل أيان يوم القيامة**﴾[2].

■ التربية الوالديّة التي تلعب دورًا مهمًا في جعل الإنسان يخرج عن فطرته التوحيديّة، ففي الحديث النّبوي: «كلُّ مولود يولَد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصِّرانه»[3].

■ التأثّر بالعوامل الخارجية كالبيئة الثقافيّة والحضارية والاجتماعيّة

1 - سورة يونس، الآيتان:22-23.
2 - سورة القيامة، الآيتان:5-6.
3 - المجلسيّ، بحار الأنوار، ج3، ص281.

العامّة، فالإنسان قد يقع أسير التيارات المنحرفة. كلّ هذه العوامل وغيرها تحجب نور الفطرة.

وفي الختـام، نقول: صحيح أنّ اللّه سـبحانه وتعالى جعل الدِّين فطريًّا، لكـن في الوقت عينه خلقَ الإنسـانَ مختارًا يتمتّع بحريّـة الإرادة، ففطريّة الدِّيـن لا تدفع الإنسـان نحـو الاعتقاد بـه أو الالتـزام بتعاليمه على نحو الاضطـرار والإكراه ﴿**لا إكـراه فى الدِّيـن**﴾[1]، بل تبقى النّفـس البشريّة بالمشـيئة أمام الإيمان والكفر والفجور والتقوى، فباسـتطاعة الإنسان أن يختار ما يتعارض مع الفطرة، ولا يكون ذلك دليلاً على عدم فطريّته واقعًا.

1 - سورة البقرة، جزء الآية: 256.

الفصل الثالث:

نظريَّات الملحدين في تفسير الإيمان باللّه، تعالى

المبحث الأوّل:
الإيمان باللّه ينشأ من الجهل بالظواهر الطبيعية

● أوّلًا: شبهة أنّ الإيمان بالله نتيجة الجهل:

تعتقد هذه الأطروحة التي يؤمن بها الملاحدة، منذ عهد أوجست كونت، مرورًا بالماركسيَّة، وبرتراند رسل، وريتشارد دوكنز وستيفن هوكنغ... أنّ الاعتقاد بوجود اللـه وليدة عجز الإنسان القديم عن تفسير الظّواهر الطّبيعيّة وعدم امتلاكه الأدوات العلمية اللازمة لفهمها، كالأمراض وتنوّع الفصول والخسوف والكسوف والمدّ والجزر والزلازل والبراكين والفياضانات والعواصف والصّواعق...، فأمام ما يعتريه من الحَيْرة ونوبة الجهل، يختلق عقله كائنًا فوق الطّبيعة «الإله»، يُسند هذه الظواهر إليه، وتناقلت الأجيال بالتثاقف هذه العقيدة أبًا عن جدّ، وأصبحت أيديولوجيا متمكِّنة من نفوس البشر.

يقول ستيفن هوكنغ: «إنّ جهل البشر في القِدَم بطرق الطبيعة، أدّى بهم إلى اختراع آلهة تُعزى إليها كلّ مناحي الحياة البشريّة».

وفي «زمن العلم»، أي عصر اعتماد الإنسان على المنهج الاستقرائيّ والتجريبي القائم على أساس الملاحظة الحسيّة في فهم الطبيعة، واكتشاف الأسباب الطبيعية للظواهر والعلاقات القائمة بينها، لم يعد ثمة حاجة إلى الإيمان بالإله لأنّه مجرّد خرافة وتفسير أسطوريّ للظواهر الطبيعيَّة[1].

1 - انظر: ماشيري، كونت الفلسفة والعلوم، ص17-39. وج. بنروبي، مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا، ج1، ص13.

ففـي ضوء هذه الرؤية، إنّ االله تعالى هو x المجهول في معادلة الكون، نبحث عنه لتغليف جهلنا، بإسـناد العلل المجهولة إليه، فإذا تمّ اكتشـاف القوانين الطبيعيَّة أدى ذلك إلى تراجع الله خطوة إلى الوراء، بعد أن يكون قد اسـتنفد غرض الإيمـان به، أو -كما نقل فلاماريـون عن كونت- يؤدي العلـم إلى عزل أبي الطبيعة –أي الله- عـن عمله، بعد أن يكون قد قدّر له خدماته المؤقَّتة!!

هذه النظرة تقوم على أسـاس أنّ العلاقة بـين الله, تعالى, والكون علاقة أفقيّة خاضعة لعلم الإنسـان وجهله، فاللّه, تعالى, يقف على خطّ موازٍ مع العلل الطبيعيَّـة، فيقع الترديد بينه وبينها، من أنّ هذه الظاهرة هي إمّا صنع الله وإمّا العلة الطبيعيَّة المعيّنة، فإذا اكتشفنا العلة الطبيعيَّة انعزل الله تعالى عن عمله[1]!!

وممن تبنى وجهة النظر هذه أيضًا، الفيلسـوف الماركسي جورج بولتزر، حيـث يقـول: «إنَّ الدّيانة لمّـا كانت تتولَّد مـن الجهل فإنّهـا تُحِل محلّ التّفسيرات العلميّة تفسيراتٍ خياليّة، فتَعمل بذلك على ستر الواقع وإسدال السّتار على التفسير الموضوعي للظواهر، ولهذا كان الرّجل المتديِّن مُناوئًا لمبادئ العلم التي هي من عمل الشّيطان، لأنه حريصٌ على أوهامه»[2].

إذًا ينبغـي انسـحاب الإيمان بالله عن السـاحة البشريّـة ليخلي المكان للعلم[3]، فالإنسـان يتمكّن بوسـاطة العلم من حلّ مشكلاته وإدارة حياته

1 - نقلاً عن: مطهري، الدوافع نحو المادية، ص32.
2 - بوليتزر، جورج، وجي بيس وموريس كافين، أصول الفلسفة الماركسية، ج1، ص208.
3 - كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص370.

وتحقيـق سـعادته، ووفـق قـول أرنسـت رينـان (1823-1892) في كتابه «مسـتقبل العلم» : إنّ العلم هو الذي يقدّم إلى الإنسـان الوسيلة الوحيدة التي يسـتطيع بهـا أن يصلح أحواله والـشيء الذي لا تسـتطيع أن تعيش بدونه، أي الرمز والناموس.

وكما ذكرنا سابقًا، لقد حاولت نزعة الإلحاد تصوير وجود تناقض جذريّ بـين المنهج العلمـيّ - التجريبيّ والإيمـان بالله. يقول ريشـتارد دوكنز: «لقـد طرد دارون الإله من البيولوجيا، ولكـنّ الوضع في الفيزياء بقي أقل وضوحًا، ويُسدّد هوكينج الضربة القاضية الآن»[1].

● ثانيًـا: الإيمان بالله، تعالى، لا يتعارض مع التفسـير العلميِّ للظواهر الطبيعيَّة:

نعتقـد أنّ هـذه النظـرة سـطحية وحمقـاء، لأنّ العلاقة بـين الله تعالى والكون غير خاضعة لعلم الإنسـان وجهله، وأنّه لا تعارض بين اكتشـاف العلـة الطبيعيَّة وبين كون الله,, تعالى هو الذي أعطـى هذه العلة الطبيعيَّة قدرتها على التأثير فيما تؤثّر فيه، فالله تعالى هو الذي أرسل الرياح لواقح، والله, تعالى, هو الذي أرسل الرياح فتثير السحاب فيهطل المطر فيُحيي به الأرض، والله تعالى هو الذي أعطى النار قدرتها على الإحراق، فهو الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى، فهذه الأسـباب الطبيعيَّة تستمدّ عليّتها من عليّته، وسـببيّتها من سـببيّته تعالى، فهو مسـبّب الأسباب، وأبى أن يجري

1 - نقلاً عن: أبو لحية، الكون بين التوحيد والإلحاد، ص82.

الكون إلا ضمن نظام السببيّة، والمدبّرات أمرًا، فالأسباب تؤثر فيما تؤثر فيه بإذنه تعالى، فالظواهر في عين انتسابها إلى عللها الطبيعيَّة تستند إلى الله تعالى خالقها ومسببها.

فالعجب في هذه الأطروحة يكمن فيما تدّعيه من التعارض بين اكتشاف السّبب الماديّ لظاهرة طبيعيّة ما وبين الاعتقاد بأنّ سببها هو الله,تعالى، لأنّه كلّما تقدّم العلم خطوة إلى الأمام ينبغي أن يتراجع الإله خطوة إلى الوراء، فإذا كان السّبب الماديّ معروفًا فإنّ نسبة الظّاهرة إلى اللّه جهل وتخلّف.

لكن في الحقيقة، إنّ العقل البشريّ لا يرى تناقضًا في وجود سببين لظاهرة ماديّة معيّنة: السّبب الأول: مادي محسوس، ككون النّار علّة لارتفاع درجة حرارة الماء ومن ثمّ الغليان.

والسّبب الثاني: غيبيٌّ، وهو القدرة الإلهيَّة التي سبّبت الأسباب بحيث يؤثر موجود في موجود آخر بإذن الله,تعالى، فاللّه تعالى هو الذي أعطى النّار سببيّتها لارتفاع درجة حرارة الماء.

عن الإمام الصّادق, عليه السّلام: «... أبى اللّه أن يجري الأشياء إلّا بأسباب، فجعل لكلِّ شيء سببًا»[1].

والقرآن الكريم يؤكّد هذه الحقيقة التكوينيّة، قال تعالى: ﴿**اللّه الذى يرسل الرّياح فتثير سحابًا**﴾[2]، فأسند القرآن إثارة السّحاب إلى الرّياح،

1 - الكليني، الكافي، ج1، ص183.
2 - سورة الرّوم، الآية: 48

وذلك ضمن قانون السّببيّة. وقال تعالى: ﴿**وَأَنْزَلَ مِنْ السّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ**﴾[1]، والباء في «فأخرج به» للسببيّة، والضّمير يرجع إلى الماء. فالسببيّة بين الموجودات الماديّة أمرٌ يؤكّده القرآن الكريم والعقل السليم، لكن لا بمعنى تأثيرها على نحو الاستقلال، بل هي تابعة لمشيئة اللّه تعالى وإرادته.

فهذه الفكرة أيضًا من السّخافة بمكان، لأنه لا يوجد أدنى تلازم بين اكتشاف القوانين الحاكمة على الطّبيعة وبين نقص الإيمان بالله,تعالى، إذ الإيمان باللّه تعالى لا يلغي الاعتقاد أن هذا الكون يعمل في ضوء قوانين طبيعيّة يمتلك الإنسان القدرة على اكتشافها والوصول إليها.

● **ثالثًا: الإيمان بالله تعالى يحثّ على اكتشاف أسرار الطبيعة:** ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[2]. وقال تعالى: ﴿**وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾[3].

وقد حثّ الدِّين الحقّ الإنسانَ على اكتشاف أسرار الطّبيعة والقوانين الحاكمة عليها بوساطة منهج الملاحظة الحسيّة، والتدبّر والتفكّر والنّظر... في الآيات الآفاقية (الجبال والرّياح والسحاب والبحار والسّماء والكواكب والنّجوم والنباتات والحيوانات كالنحل والإبل، ...)، كقوله تعالى: (إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري

1 - سورة البقرة، الآية: 22

2 - سورة فصّلت، الآية: 53.

3 - سورة الذاريات، الآيتان 20 21.

في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)[1].

فذلك يجعل الإنسان يتعرّف على الله بوساطة القوانين الكونيّة وعجيب صنع الظواهر الطبيعيَّة، ويعبرّ عن ذلك أمير المؤمنين, عليه السّلام, في خطبة له، حيث يقول: «كفى بإتقان الصنع لها (أي للأشياء والمخلوقات) آية»[2].

ويكفي هذا النصّ عن أمير المؤمنين, عليه السلام، قال: «... أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَه وأَتْقَنَ تَرْكِيبَه وفَلَقَ لَه السَّمْعَ والْبَصَرَ وسَوَّى لَه الْعَظْمَ والْبَشَرَ، انْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، ولَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ، ولَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ،كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، وتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا، تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وفِي وِرْدِهَا لِصَدَرِهَا، مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا، لَا يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ ولَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ، ولَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ والْحَجَرِ الْجَامِسِ، ولَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا فِي عُلْوِهَا وسُفْلِهَا، ومَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا، ومَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، ولَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً، فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا، لَمْ يَشْرَكْه فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، ولَمْ يُعِنْه عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ، ولَوْ ضَرَبْتَ فِي

1 - سورة البقرة، الآية: 164.

2 - الصدوق، التوحيد، ص71.

مَذَاهِب فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاته مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَة هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَة، لِدَقِيق تَفْصِيلِ كلّ شَيْءٍ، وغَامِضِ اخْتِلَاف كلّ حَيٍّ، ومَا الْجَلِيلُ واللَّطِيفُ والثَّقِيلُ والْخَفِيفُ والْقَوِيُّ والضَّعِيفُ فِي خَلْقه إِلَّا سَوَاءٌ.

وكَذَلِكَ السَّمَاءُ والْهَوَاءُ والرِّيَاحُ والْمَاءُ، فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْس والْقَمَر، والنَّبَات والشَّجَر، والْمَاء والْحَجَر، واخْتِلَاف هَذَا اللَّيْلِ والنَّهَار، وتَفَجُّر هَذه الْبِحَار، وكَثْرَة هَذه الْجِبَال، وطُول هَذه الْقِلَال، وتَفَرُّق هَذه اللُّغَات والأَلْسُن الْمُخْتَلِفَات، فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ وجَحَدَ الْمُدَبِّرَ، زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَات مَا لَهُمْ زَارِعٌ، ولَا لِاخْتِلَاف صُوَرِهِمْ صَانِعٌ، ولَمْ يَلْجَأوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، ولَا تَحْقِيقٍ لِمَا أَوْعَوْا، وهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ؟!...»[1].

وليس العلم التجريبي إلّا اكتشاف قوانين الطّبيعة والسّنن الحاكمة عليها لتسخيرها في خدمة الإنسان.

ويحفّز الإيمان بالله, تعالى, الإنسان على التقدّم في البعد الماديّ والطّبيعي وعمارة الأرض والاستثمار الإيجابي فيها، (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)[2].

1 - الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، ص270-271، الخطبة: 185..
2 - سورة هود، الآية:61

المبحث الثاني:
الإيمان باللّه يتعارض مع التقّدم والتطوّر

● أوّلًا: دور بعض المتديّنين في التنفير لا التبشير

ثمة أمر مهمّ لا يمكن إنكاره، وهو أنّ بعض المتديّنين يُقدِّمون نموذجًا سيئًا عن التديّن، ينفّر الشباب من الدّين كدين، إذْ إنّ الشابّ عادة لا يمكنه التمييز بين الدّين في ذاته كرسالة إلهيَّة معصومة، وبين الممارسات الدينيّة، فيُسري حكم الممارسة على الدّين نفسه، فيعتقد أنّ الدين هو الذي يدعو هذا الشخص أو ذاك إلى هذه الممارسة التي لا تمتّ إلى الدين بصلة، فالدّين بريء من كثير من الممارسات التي يقوم بها بعضهم باسمه، كما أنّه بريء من الكثير من الاتّهامات التي تُنسَب إليه وتُلصَق به لتشويه صورته الصافية النقيّة.

فقد لاحظنا -مثلاً- بقراءة تاريخ الغرب الاستبداد الدينيّ الذي مارسته الكنيسة ضدّ الإنسان الأوروبيّ ولَّد ردّة فعل عنيفة وعدائيّة عنده ضدّ الألوهية والدّين عامّة، من باب سراية حكم أحد المتّحدَيْن إلى المتّحد الآخر، نتيجة عدم التمييز بين الدين ممارسةً بشريّة وبين الدين عقيدةً تؤمن بوجود صانع وخالق للكون، فأدت الثورة على الأول ورفضه إلى رفض الثاني، مع أنّه لا علاقة منطقية بين الأمرين، بل هي مجرّد حالة نفسيّة، وقد أشار إلى ذلك الشهيد مرتضى مطهري في كتابه: «الدوافع نحو المادية»، وكذلك الكاتبة زينب عبد العزيز في كتابها «الإلحاد وأسبابه: التاريخ

الأسـود للكنيسـة»، فقد أثبتت أنّ الاسـتبداد الديني في العصور الوسطى أدّى إلى انتشـار الإلحاد ونزعة التمرّد على الدّيـن، إلى درجة تحوّل معها الإلحاد إلى حالة نضاليّة لمذهب الإنسانيَّة (Humanism) في صراعه مع المذهب الكنسيّ.

ومـن هنا، في مكان مـا، نؤيّد من يعتقد أنّ المواجهـة مع الملحدين لا تقتصر على عالم الأفكار والعقيدة، بل تتجاوزه إلى إثبات كون الدين قادرًا على الحفاظ على كرامة الإنسان وتحريره من أثقال العبودية والقهر والظلم والحرمان و... وأنّ الدين يواكب حاجات الإنسـان ومتطلباته في كلّ زمان ومـكان، وأنّه هو القـادر على قيادة الحياة البشريّة نحو سـعادتها وكمالها وتقدّمهـا ورقيّهـا، هـذا الإثبات الذي لا يمكـن تقديمه بوسـاطة التنظير الفكـريّ فقط، بل بالممارسـة العمليّة، بأن يرى النـاس ذلك في النماذج الحسيّة وسلوك المتديّنين، كما ورد في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام: كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، وذلك بأن يرى الناس من المتديّن الورع والصدق والأمانة والخير، فإنّ ذلك داعية[1].

فقد رأينا بعض الشباب يبتعد عن الدّين والألوهية، لا بسبب قناعة ذاتية وبحث معمّق، ولا بسـبب إنكار الألوهية على المستوى العقلي والقلبيّ، بـل بدأت رحلته عـلى طريق الإلحاد مـن رؤيته أنّ الدّيـن غير قادر على تلبية حاجات الإنسان المعاصر، وأنّ الدّين يناهض التقدّم والتطور والعلم والتكنولوجيـا... ومـن رؤيته أنّ أسـلوب بعض المتديّنين هـو التنفير لا

1 - انظر: الكليني، الكافي، ج2، ص64. والحر العاملي، وسائل الشيعة، ج1، ص76.

التبشير، أي يتحرّكون في حياتهم على خلاف وصية رسول الله، صلّى الله عليه وآله وسلّم، عندما أمر عليًّا, عليه السّلام, ومعاذًا أن يسيرا إلى اليمن، فقال: «انطلقا، فبشّرا، ولا تُنفِّرا»[1]،

● ثانيًا: المقارنة بين المجتمعات المُلحِدة والمجتمعات الإيمانيّة:

في هذا السياق، يطرح أصحاب الاتجاه الإلحاديّ شبهات عدّة، منها:

1 - الشُّبهة الأولى: أنّه عندما نقوم بالمقارنة بين المجتمعات الغربيّة الملحدة من جهة، وبين المجتمعات المتديّنة، نلاحظ أن المجتمعات الإلحاديّة أكثر تقدّمًا، وليس ذلك إلّا لأنّ الدِّين هو المانع عن تقدّمها وسبب تخلّفها، فالتقدّم إنّما يتحقّق بالتحرّر من سلطة الأساطير والخرافات الدِّينيّة.

2 - الشُّبهة الثّانية: أنّ المجتمعات الملحدة التي تحرّرت من سلطة الدّين على الحياة، تتعهّد بتأمين رفاهيَّة الإنسان، من السّكن وفرص العمل والطّبابة والضّمان الصّحي و... بينما المجتمعات الدِّينية لا تقوم بذلك.

وبعبارة مفصّلة: يُلاحِظ الإنسان عند قيامه بعمليّة مقارنة بين المجتمعات المتديّنة والمجتمعات الغربيّة الملحدة، أنّ الأولى أقلّ تطوّرًا وأكثر تخلّفًا، فنظرةٌ فاحصة إلى المجتمعات الثّانية تُظهِر لنا التقدّم الهائل في المعارف الإنسانيَّة والعلوم الطبيعيَّة، والتطوّر في الصّناعات التقنية والآلات الحديثة

1 - الريشهري، ميزان الحكمة ، ج1، ص294.

كالأقمار الصّناعية والقطارات والحواسيب والطّائرات...، والمصانع الضّخمة ومعامل الإنتاج، والازدهار العمراني في الأبنية الشّاهقة وتصميم الطّرقات والجسور والأنفاق...، وتطوّر العلوم الطّبيّة ونظام الصّحة والاستشفاء، وتقديم أفضل أنواع الخدمات التعليميّة في المدارس والجامعات، والقوانين الوضعيّة التي تمنح المواطن حقّه في الأمن والعمل والسّكن وضمان الشيخوخة وحرية التعبير عن الرأي والمشاركة في الحياة السّياسية العامة... إلخ. في المقابل، نظرة خاطفة إلى المجتمعات الدِّينيّة ترسم في أذهاننا انطباعًا مغايرًا، حيث الفقر والتّخلّف والفوضى والبطالة والجهل و...

وما تمكّنت المجتمعات الغربيّة من بناء هذا اللون من النّموذج الحضاري إلّا بسبب تمسّكها بالعلوم التجريبيَّة والتحرّر من سلطة الكنيسة والدّين، فانطلقَت بالعلم لاكتشاف أسرار الطّبيعة وتسخيرها لخدمة الإنسان وسعادته ورفاهيَّته، بينما بقيت المجتمعات الدِّينيّة أسيرة تقديس التصوّرات الدِّينيّة التقليديّة عن الطّبيعة والاعتقاد بالإله والمعجزات والملائكة والجنّ و... وتمجيد الزّهد والقناعة وتحقير الدّنيا... فقعدت عن التمسّك بمنجزات العلم الحديث لكونها تعارض الدِّين، فأصيبت بالعجز والشّلل عن الارتقاء في معارج التقدّم الحضاري، فالإيمان بالله يشكِّل مانعًا عن تقدّم الحياة الإنسانيَّة.

ولن تتمكّن المجتمعات المتديّنة من الالتحاق بقافلة الحضارة إلّا بأمرين:

الأول: التحرّر من سلطة الإيمان بالله، والتّخلي عن تلك التّصوّرات

الأسطوريّة عن الكون والطبيعة والإنسان...

والثاني: تَبَنِّي النّظرة العلميّة إلى الإنسان والطّبيعة والوجود والمادة.

وهذه المشكلة، هي التي كانت تؤرّق ذهن الشهيد السيد محمد باقر الصدر، ولذلك نلاحظه أنّه في مقدّمة كتاب «فلسفتنا»، مع أنّه دراسة موضوعيّة في معترك الصراع الفكري القائم بين مختلف التيارات الفلسفيّة وخاصة الفلسفة الإسلامية والمادية الديالكتيكيَّة (الماركسيَّة) التي تمثّل التيار الإلحاديّ في ذلك الزمان، إلاّ أنّه يشير إلى أنّ أساس المشكلة هي المسألة الاجتماعيّة، لذا يقول الشهيد الصدر: « المسألة الاجتماعيّة مشكلة العالم التي تملأ فكر الإنسانيَّة اليوم، وتمسُّ واقعها بالصميم هي مشكلة النظام الاجتماعيّ التي تتلخّص في محاولة إعطاء أصدق إجابة عن السؤال الآتي: ما هو النظام الذي يصلح للإنسانية وتسعد به في حياتها الاجتماعيّة؟

ومن الطبيعي أن تحتل هذه المشكلة مقامها الخطير، وأن تكون في تعقيدها وتنوع ألوان الاجتهاد في حلّها مصدرًا للخطر على الإنسانيَّة ذاتها، لأنَّ النظام داخل في حساب الحياة الإنسانيَّة ومؤثِّر في كيانها الاجتماعيّ في الصميم.

وهذه المشكلة عميقة الجذور في الأغوار البعيدة من تاريخ البشريّة، وقد واجهها الإنسان منذ نشأت في واقع الحياة الاجتماعيّة، وانبثقت الإنسانيَّة الجماعية تتمثل في عدة أفراد تجمعهم علاقات وروابط مشتركة. فإن هذه العلاقات التي تكونت تحقيقًا لمتطلبات الفطرة والطبيعة في حاجة بطبيعة الحال إلى توجيه وتنظيم، وعلى مدى انسجام هذا التنظيم

مع الواقع الإنساني ومصالحه يتوقف استقرار المجتمع وسعادته»[1].

● **ثالثًا: الإيمان بالله تعالى يصنع الحضارة الإنسانيَّة النموذجيّة:**

النقطة الأولى التي أودّ تسليط الضوء عليها، هي أن نحاول معًا تخايل شكل الحضارة الإنسانيَّة والعالم اليوم إذا عزلنا عنه فكرة الإيمان بالله, تعالى, والرسل الّذين بعثهم إلى البشريّة على امتداد التاريخ، لا شكّ في أنّ ما يتغنّى به هؤلاء من التقدّم والتطوّر والحضارة لم يكن له وجود لولا الإيمان بالله تعالى ومسيرة الأنبياء، لأنّ شكل البشريّة اليوم هو مدين -شاء من شاء وأبى من أبى- إلى الدّين، وإلّا كان صورة البشريّة هي صورة التوحّش والبربريّة وسلوك سكان الكهوف والأدغال... الغارقة في مستنقع الماديّة المحضة والمتعة الحسيّة، إنّ تطور العقل البشريّ، وحاكمية القيم على الحياة الإنسانيَّة مدين للإيمان بالله, تعالى, والدّين، إذ إنّ الملحدين أنفسهم، يعترفون بأنّه لولا الإيمان بالله, تعالى, لسقطت كلّ القيم ولكانت البشريّة منغمسة في التوحّش، فإن كان ثمة بعض بقايا الأخلاق والتمدّن في هذا العالم فهي بسبب ما ورثته من الأخلاق الدينيّة عامّة، وخير دليل على ذلك أنّ إنكار الصانع لهذا العالم يُحرِّر الإنسان من أي سلطة أخلاقيّة، إذ لا يكون ثمة مكان للخير أو الشر أو الحسن أو القبح، فهذا الفيلسوف الوجودي الفرنسيّ الملحد جان بول سارتر، يقول: «لقد كتب دوستويفسكي: «لو لم يكن الله موجودًا، لكان كلُّ شيءٍ مسموحًا به».

1 - الصدر، محمد باقر، فلسفتنا، ص11.

هذه هي نقطة البداية للوجوديّة. في الواقع، كلُّ شيءٍ مباح إذا لم يكن اللهُ موجودًا»[1].

وكذلك عالم الأحياء التطوّريّة الملحد ريتشارد دوكنز، يقول: «في هذا العالم لا يوجد شرٌّ ولا يوجد خيرٌ، لا يوجد سوى لامبالاة عمياء وعديمة الرّحمة»[2].

لولا الإيمان بالله, تعالى, والأخلاق الدينيّة، سنرى في مجتمعاتنا مشروعية الزواج بين الإنسان والحيوان، فهذا الملحد الأسترالي «بيتر سنجر» يقول لا خطأ في ممارسة الجنس بين البشر والحيوانات طالما أنّه يؤدّي إلى استمتاع الطرفين[3].

وهذا الفيزيائيّ المُلحد «لورنس كراوس»، لا يعدُّ أنّ العلاقة الجنسيّة بين المحارم كالأبن وأمّه أو ابنته، خطأ، ولا يوجد في ذلك أيَّ إدانة طالما أنّه بالتراضي والحبّ[4].

نعم، لولا الإيمان بالله, تعالى, والأخلاق الدينيّة، لكانت صورة البشريّة صورة حيوانية، وحضارة بهائميّة، لأنّه لن يكون هناك صوت للعقل، بل الحاكم هو نداء الشهوة الحيوانيّة واللذة الحسيّة والمتعة الماديّة.

عن أمير المؤمنين, عليه السلام: «إنّ الله عزَّ وجلَّ ركَّب في الملائكة

1 - سارتر، الوجودية مذهب إنسانيّ، ص 24-35.

2 - Scheff Liam (2007), The Dawkins Delusion, p.94

3 - https://www.aljazeera.net/midan/intellect/philosophy/201719/9/

4 - زنا المحارم ليس خطأ واضحًا، على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=M69XV35sCdk

عقـلاً بلا شـهوة، وركَّب في البهائم شـهوةً بلا عقل، وركَّـب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقلُه شهوتَه فهو خيرٌ من الملائكة، ومن غلبت شهوتُه عقلَه فهو شرٌّ من البهائم»[1].

● **رابعًا: الإلحاد وضغط الإنسان في القالب الماديّ:**

لا يمكن نفي أثر العلم في تقدّم حياة الإنسـان وتسـهيلها، وحلّ العديد مـن المشـكلات التـي يواجهها، إلا أنّ هـذا لا يسـتدعي أنْ يكون العلم الأطروحـة الفاضلـة لقيادة المجتمع البـشريّ نحو كمالـه الطبيعي. هذه رؤيّـة تختزل أبعاد هويّـة الإنسـان، وتضغطه ككيـان بيولوجي في قالب مـادي نفعي محض، وتعزله عن كلّ علاقـة خارج حدود المادة والطبيعة، أطروحة تمارس تغريب الإنسـان بإقصائه عـن الإيمان بالله، بدل أن توفّر له سـعادته الواقعيّة بتحقيق الهدف الوجـوديِّ الذي صمّم تكوينه لأجله. وإذا اسـتطاعت البشريّة أن تقضي على هذه الفكرة فإنّها تكون قد وضعت حدّاً فاصلاً للمؤامرة على الإنسان وحركته نحو سعادته وكماله. لأنّ النّظام الأصلـح لقيادة حياة الإنسـان، هو - النظـام التوحيديّ الدينـيّ[2]- ذلك أنّـه يعبّد له الطريـق في كدحه نحو هدفه، ويكافـح كلّ المثل المصطنعة

1 - الصدوق، علل الشرائع، ج1، ص4-5، ح1.

2 - طالع: الصدر، محمد باقر، السنن القرآنية للمجتمع والتاريخ، دار المرتضى، بيروت، 1413ه1993-م. واليزدي، النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ترجمة عبد المنعم الخاقاني، دار الروضة، بيروت، ط1، 1416ه1996-م. ومطهري، مرتضى، المجتمع والتاريخ، دار المرتضى، بيروت، 1413ه1993-م.

والمنخفضة والتكراريَّة، التي تريد أن تُحوِّل مسيرة البشريّة من أعلى إلى أسفل، بقطع صلة الإنسان بأشواقه العليا، وتحويل مساره إلى كومة مادية نفعيّة، محدودة الأشواق والطموحات.

إذًا تورَّطَ أصحابُ هذه الأطروحة في مشكلة معرفيّة كبرى يمكن أن نصطلح عليها «اختزال الإنسان وضغطه في قالب مادي محض»، في حين أنّ الإنسان كائن ثنائيُّ الأبعاد: المادة، والروح، ويحتاج إلى إشباع البعد المادي من وجوده، ويشترك في ذلك مع باقي أنواع الحيوانات، وهذا يمثِّل المستوى المنخفض من الحياة الإنسانيَّة، ومركز التمايز الإنساني هو في إشباع حاجاته الرّوحيّة كالشّعور الدِّينيّ بالارتباط بخالق الكون والخضوع أمام عظمته والإحساس بالطمأنينة بين يديه تعالى، وإعطاء الحياة معنى بالإيمان بالقضايا الدينيّة كعالم ما بعد الموت وخلود الرّوح... إذ تفقد الحياة الإنسانيَّة قيمتها من دون الاعتقاد بالمبدأ والخالق وخلود الحياة، لأنّه لا معنى للحياة المختومة بالعدم واللاشيئية. فقد يكون مجتمع ما متقدّمًا في البعد المادي وعالم الأشياء والآلات والتكنولوجيا والعمران...، ولكنّه متخلّف في الحياة الرّوحيّة والمعنويّة والارتباط بالله,تعالى، وإذا اتّصف مجتمعٌ ما بالتخلُّف الرّوحيّ والمعنوي، فلا يمكن الحكم عليه بالتسامي والرّقيّ، لغفلته عن البعد الأعلائي في وجود الإنسان والانغماس في المستوى المنخفض منه.

● **خامسًا: فقدان الإيمان بالله تعالى يسبّب الضياع والشعور بالعدميّة:**

ومن البديهيّ أنّ الإنسان يحتاج إلى إشباع حاجات البعد المادي من

وجـوده، كالغـذاء والتنفّس والنّوم... ويشـترك في ذلك مـع باقي أنواع الحيوانـات من حيث وحـدة الحاجات الماديّة، وهذا يمثّل المسـتوى المنخفـض من الحياة الإنسـانيَّة، فـلا يكون محور تغاير الإنسـان عن غيره، بل مركز التمايز الإنسـانيّ هو في إشباع حاجاته الرّوحيّة كالشّعور الدِّينـيّ بالارتبـاط بخالق الكون والخضـوع أمام عظمته والإحسـاس بالطمأنينـة بين يديه تعالى، وإعطاء الحياة معنـى بالإيمان بعالم ما بعد الموت وخلود الرّوح... إذ تفقد الحياة الإنسانيَّة قيمتها من دون الاعتقاد بالمبدأ والخالق وخلود الحياة، لأنّه لا معنى للحياة الممزوجة بالتعاسة والهمّ والحزن والخوف والقلق والكآبة... فإنسـانيّة الإنسـان بروحه لا ببدنه، ولا قيمة للإنسـان من دون إشـباع الحاجات الرّوحيّة التي تُشكِّل المستوى الأعلى والأسمى من وجوده، وإلّا ستكون منزلته الوجوديّة في أفق الحيوانيّة.

وهـذا ما أشـار إليه الإمـام زيـن العابدين عليـه السّـلام في الصّحيفة السّـجاديّة: « وَالحَمـدُ للّه الَّذي لَو حَبَسَ عَن عِبـاده مَعرِفَةَ حَمده عَلى ما أبلاهُم من مِنَنه المُتَتابعَة، وأسـبَغَ عَليهم من نعَمه المُتَظاهرَة ؛ لَتَصَرَّفوا في مِنَنه فَلَم يَحمَدوهُ، وتَوَسَّعوا في رِزقه فَلَم يَشكُروهُ، ولَو كَانوا كَذلكَ لَخَرَجوا مِن حُدود الإنسـانيَّة إلى حَدِّ البَهيميَّة، فكانوا كَما وَصَفَ في مُحكَم كِتابه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا﴾[1] [2].

1 - سورة الفرقان، الآية:44.
2 - الصحيفة السّجادية، ص18.

● **سادسًا: المنفعة المادية والمتعة الحسيّة ليست معيارًا للتقدّم والتطوّر:**

يتبـيّن ممّا تقدّم، أنّ النّظر إلى خصـوص المنافع الماديّة كمعيار لقياس قيمة الأشـياء والحكـم عليها، يلزم منه الاقتصار عـلى البعد الحيواني من حياة الإنسـان، في حين أنّ المطلوب -بالإضافة إلى امتلاك معيار نقيس به المنافع الماديّة- هو أن نمتلك معيارًا نتمكّن بواسطته من الحكم على قيمة حياة الإنسـان في بعدها الرّوحي بتلبية المنافع المعنويّة، وأهمّها الوصول إلى الهـدف الوجودي الـذي خُلِق الإنسـان لأجله أيّ معرفـة اللّه تعالى وعبادته، ولن يعثر الإنسان على عقيدة كهذه إلاّ في الدِّين الحقّ الذي أنزله اللّه تعالى بوسـاطة الأنبياء. فليس بالمنفعة الماديّة يكون الإنسـان إنسانًا، والحضارة حضارة، وليس بالمتعة الحسيّة يكون التطور والتقدّم، بل بإشباع الحاجـات المعنويّة والرّوحيّة التي تعلو أهمّيّتها على حاجة الإنسـان إلى الأطعمة الشّهيّة والثّياب الفاخرة والأبنية الشّاهقة ووسائل النقل المُرفّهة...

بنـاءً عليه، يظهـر أنّ التقدُّم والتخلّـف أمران نسـبيان، إذا تجاوزنا المعيار المـاديّ فقط، فلو سـلّمنا أنّ المجتمعات الغربيّة متقدِّمـة في البعد الماديّ لحيـاة الإنسـان، فأين المعيار الرّوحـي الذي نقيس به مدى تطوّر الإنسـان في الحيـاة المعنويّة؟!! قد يكون مجتمع مـا متقدّمًا في البعد المادي وعالم الأشياء والآلات والتكنولوجيا والعمران...، ولكنّه متخلّف في الحياة الرّوحيّة والمعنويّـة والارتباط بالله,تعالى، وإذا اتّصـف مجتمعٌ ما بالتخلُّف الرّوحيّ والمعنوي، فلا يمكن بنظر العقل الحكم عليه بالتسـامي والرّقيّ، لغفلته عن البعد الأعللا في وجوده والانغماس في المستوى المنخفض منه.

● **سابعًا: الإيمان بالله والدّين الحقّ يحفِّز على التقدّم والتنمية:**

قد يتخلّف المنتسبون إلى دين ما في سلوكهم عن الالتزام بتعاليمه، فلا يُنسَب تخلّفهم عنه إلى الدِّين ذاته، فالشُّبهة المطروحة ناشئة من الخلط بين الدِّين الحقّ في ذاته بما يحتوي عليه من رؤية كونية وأخلاق وقيم وتشريعات... وبين الدِّين كممارسة إنسانيّة في الحياة الاجتماعيّة، والمعايير العلميّة والموضوعيّة تقتضي من الإنسان النّزيه والمُنصِف أن يحكم على الدِّين الحقّ في ذاته، لا في ضوء ممارسات المنتسبين إليه وفق سياقات تاريخيّة قد لا تمثّل جوهره كما هو.

فليس الدِّين في ذاته هو العامل لتكون المجتمعات الدِّينية أقلّ تقدّمًا مقارنة بالمجتمعات الغربيّة التي تسود فيها الحضارة الماديّة، بل العكس هو الصّحيح، لأنّ العامل الحقيقي في تراجع المجتمعات الدينيّة عن بناء الحضارة الماديّة هو في تخلّيها عن سنّة الاستخلاف والتسخير وعمارة الأرض... وفق الإرادة الإلهيَّة. فقد ربط القرآن الكريم بين إقامة الدِّين الحقّ وبين رفاهية الحياة الماديّة، يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾[1]، ﴿**وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا**﴾[2]، ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾[3].

1 - سورة المائدة، الآية:66.
2 - سورة الجن، الآية:16.
3 - سورة نوح، الآيات:10-12.

والعامـل الآخـر، أنّ الدّول المسـتكبرة التي تمثّل المجتمعـات الغربيّة الملحدة سـيطرت على ثروات المسـلمين ونهبت خيراتهم، ومنعتهم من اسـتثمار مقدراتهم، فبنت حضارتها الماديّة عـلى سرقة ثروات مجتمعاتنا ونهـب خيراتها، وليس أمام المجتمعات الإيمانيّـة من أجل بناء الحضارة الإنسانيَّة الشّاملة في بعديها المادي والرّوحي إلا:

- **أولًا:** العودة إلى إقامة الدِّين الحقّ، وليس التخلّي عنه.
- **ثانيًا:** التحرّر من أيّ سلطة استكباريّة خارجيّة.
- **وثالثًـا:** اسـتثمار العلوم التجريبيَّة في اكتشـاف أسرار اللّه, تعالى, في الطّبيعة التي سـخّرها للإنسان، ليسـتثمر في منافعها إيجابًا من أجل إشباع حاجاته الماديّة بما يضمن تكامله الرّوحي والمعنويّ.

المبحث الثالث:

الإيمان بالله وليد "فتنة الخوف"

ثمة تفسير آخر للملحدين لظاهرة الإيمان بالله, تعالو الممتدّة عميقًا في التاريخ الإنساني، تُرجِع نشوء الإيمان بالله, تعالى, إلى عامل نفسيّ آخر غير الجهل، اصطلح عليه اسم «فتنة الخوف»، أيّ خوف الإنسان من تلك الظّواهر الطبيعيَّة والشّعور بالعجز عن مواجهتها، فقام العقل البشريّ باختراع فكرة الإله كقوة عظمى تتحكّم بالعالم، تمتلك من صفات القدرة والقوّة التي تجعلها مؤهّلة ليلجأ إليها الإنسان لتخلّصه من خوفه ومعاناته وتحميه من المخاطر والتهديدات فيرتفع الخوف من داخله، ويشعر بالأمان النّفسي والسّكينة.

يقول برتراند رسل: «يقوم الدِّين، برأيي، بصورةٍ أساسيّةٍ وأوليّةٍ على الخوف، إنّه جزئيًا الخوف من المجهول... إنّ الخوف هو أساس الأمر كلِّه – الخوف من كلّ ما هو غامض، الخوف من الهزيمة، والخوف من الموت، إنّ الخوف هو أبو القسوة وأمها، لذا، لا عجب إذا ما كان الدِّين والقسوة يسيران يدًا بيَد»[1].

ويقول: «في عقيدتي أنّ الإقبال على الدين والتدين في تاريخ الإنسان ينشأ عن الخوف، فإنّ الإنسان يرى نفسه ضعيفاً إلى حد ما في هذه الحياة،

1 - رسل، لماذا لست مسيحيًّا؟ ص26.

وعوامل الخوف في حياة الإنسان ثلاثة:

فهو يخاف أولاً من الطبيعة التي قد تحرقه بصاعقة من السماء، ويبتلعه زلزال الأرض تحت قدميه، ويخاف ثانياً من الإنسان الذي قد يسبب له الدمار والخراب والهلاك مما يثيره من حروب، ويخاف ثالثاً من شهواته التي قد ينحرف معها وتتحكم في سلوكه وتفوت عليه ما يندم عليه في ساعات استقراره وهدوئه، ويكون الدين سبباً في تعديل هذا الرعب والتخفيف منه»[1].

وتقدّم أنّ عقل الإنسان قد تطوّر واكتشف بوساطة العلوم التجريبيَّة العلاقات القائمة بين الظّواهر الطبيعيَّة وأسباب حدوثها، فارتفع جهله بها، ولم يعد هناك داعٍ للخوف منها، فعلى الإنسان والحال هذه أن يتحرّر من العقائد الخرافيّة الموروثة التي تعارض العلم الحديث، ولا بدّ من ارتفاع الاعتقاد بالإله تبعًا لارتفاع الجهل والخوف وسيادة المنطق العلمي. فالحلّ يكمن في الإيمان بالعلم وقدرته على تغيير حياة الإنسان. لذا يتابع رسل قوله: «العلم يستطيع أن يساعدنا في تجاوز هذا الخوف الذي يصيبنا بالجبن والذي عانى منه الجنس البشريّ لأجيال عديدة»[2].

● ثانيًا: الإيمان باللّه تعالى سبب للشعور بالأمان النّفسيّ

لو كان ما تطرحه هاتان النظريتان -من أنّ الجهل بالأسباب الطبيعيَّة

1 - نقلاً عن: الآصفي، دور الدين في حياة الإنسان، ص74.
2 - رسل، لماذا لست مسيحيًّا، ص35.

أو الخـوف منها هـما العلّة التامّة لنشـوء الإيمان باللّه تعـالى- صحيحًا، لاسـلتزم منطق قانون السّببيّة -القائم على أسـاس أنّه عندما يوجد السّبب يوجد المسـبَّب، وعندما ينتفي السّبب ينتفي المسبَّب- أن يكون المجتمع الأكـثر إيمانًا باللّـه تعالى هو المجتمع الأكثر جهـلاً وخوفًا، فأينما يوجد الخـوف والجهل يوجد التديّـن، وعندما ينتفي الخـوف أو الجهل ينتفي التديّـن وتكـثر النّزعة الإلحاديّة. بينما المسـألة على عكـس ذلك تمامًا، حيـث نلاحظ أنّ الملحد يعيش القلق الوجودي والخوف من المسـتقبل، في حـين أنّ المجتمع العلماني الدِّيني أكثر فهمًا للوجود، وأشـدّ شـعورًا بالطمأنينة والسّـكون نتيجة الارتباط بالله,تعالى، كـما أنّ الاعتقاد بوجود اللّـه تعالى أكثر انتشـارًا عند علـماء الطّبيعـة والفيزياء الحديثـة والفلك و... في المجتمـع العلمي المعاصر مـن الإلحاد وإنكار وجود اللّه تعالى بأضعاف كبيرة.

فالاعتقاد بالله, تعالى, والتديّن يعزّز الصِّحة النفسيّة للإنسان بما يمنحه من شـعور بالأمان والطمأنينة وسـكون النفس، فيـزول عنه الاضطراب والقلـق من المسـتقبل، لأنّ الدين الحقّ يعطي للحياة تفسـيراً ذا هدف ومغـزى ومعنى، فلا يـؤدّي ذلـك إلى تولّد النزعـة العدميّة والشـعور بالضياع.

فلولا الإيمان بالله,تعالى، سـينعدم الشعور بهدفيّة الكون عند الإنسان، وسيشـعر الإنسـان أنّه يعيش الوحشـة في هذا العالَم الفسيح، وتزيد لديه نزعة التشاؤم والعدميّة، والأمراض النفسيّة، والجنون...

يُنقـل عن كارل يونج - مؤسّـس علـم النفس التحليليّ - أنّـه يقول: «إنّ

انعدام الشعور الدينيّ يسبّب كثيراً من مشاعر القلق والخوف من المستقبل، والشعور بعدم الأمان والنزوع نحو النزعات المادّية البحتة، كما يؤدّي إلى فقدان الشعور بمعنى هذه الحياة ومغزاها، ويؤدّي ذلك إلى الشعور بالضياع»[1].

ولهذا نلاحظ أن أعلى نسبة انتحار هي بين الملحدين حسب الدراسة التي أجراها البروفيسر José Manoel Bertolote، وهو مسؤول في منظّمة الصّحة العالميّة، حيث كشفت أنّ نسبة الملحدون على رأس قائمة الّذين قتلوا أنفسهم ليتخلَّصوا من حياتهم وتعاستهم، بنسبة (40 %)، وفي ذيل القائمة يأتي المسلمون (1 %)[2].

فأيّ صورة ستكون عليه البشريّة لو انتشر الإلحاد وارتفع الإيمان بالله,تعالى، إنّ الإيمان بالله تعالى هو ضمانة ما تشعر به الإنسانيَّة اليوم من بعض القيم والأخلاق رغم كلّ ما فيها من الفساد والشرّ والظلم و...

كما أنّ التديّن هو الذي يُكسِب الإنسان القوّة في الحياة على مواجهة التحديات، ويمنحه الشجاعة والثقة بالنفس، نتيجة شعوره بالمعيّة الإلهيَّة، وهذا ما نلمسه في حياة الأنبياء عليهم السلام، فيوسف عليه السلام، ذلك الطِّفل الذي كان في التاسعة من عمره، حين ألقاه إخوته في غيابت الجُبّ، من المفترض أن يشعر بالخوف والاضطراب والقلق والكآبة والوحشة والغربة.... لكن، حين التقطه بعض السيّارة وأُخرج عليه السّلام من البئر،

1 - انظر: العيسوي، دراسات في تفسير السلوك الإنسانيّ، ص193.

2 - Is religion protective against suicidal behaviour for LGBT individuals?

قال لهم قائل: استوصوا بهذا الغريب خيراً.

قال لهم يوسف: «من كان مع الله فليس عليه غربة[1].

فالشعور بالمعيّة الإلهيَّة يُشعِر الإنسان بالطمأنينة وسكون النفس ويطرد عنه الخوف والحزن.

وفي هذا السياق يقول الشهيد الصدر في نصّ مهم:»توصّل الإنسان إلى الإيمان بالله منذ أبعد الأزمان، وعبده وأخلص له، وأحسّ بارتباط عميق به قبل أن يصل إلى أيّ مرحلة من التجريد الفكري الفلسفيّ، أو الفهم المكتمل لأساليب الاستدلال (...) ولم يكن هذا الإيمان وليد مخاوف وشعور بالرعب تجاه كوارث الطبيعة وسلوكها المضادّ، ولو كان الدين وليد خوف وحصيلة رعب لكان أكثر الناس تديّناً على مرّ التاريخ هم أشدّهم خوفاً وأسرعهم هلعاً، مع أنّ الذين حملوا مشعل الدين على مرّ الزمن كانوا من أقوى الناس نفساً وأصلبهم عوداً. بل إنّ هذا الإيمان يعبرّ عن نزعة أصيلة في الإنسان إلى التعلّق بخالقه، ووجدان راسخ يدرك بفطرته علاقة الإنسان بربّه وكونه (...) وحينما بدأت التجربة تبرز على صعيد البحث العلمي كأداة للمعرفة، وأدرك المفكّرون أنّ تلك المفاهيم العامّة لا تكفي بمفردها في مجال الطبيعة لاكتشاف قوانينها والتعرّف على أسرار الكون، آمنوا بأنّ الحسّ والملاحظة العلميّين هما المنطلق الأساس للبحث عن تلك الأسرار والقوانين.

(...) وكان بالإمكان لهذا الاتّجاه الحسّي والتجريبي في البحث عن نظام

1 - الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ج3، ص5.

الكون أن يقدّم دعماً جديداً وباهراً للإيمان بالله سبحانه وتعالى؛ بسبب ما يكشفه من ألوان الاتّساق ودلائل الحكمة التي تشير إلى الصانع الحكيم»[1].

● **ثالثًا: تحويل الخوف من تهديد إلى فرصة للإيمان بالله, تعالى:**

لا يمكن تصنيف الخوف بحدِّ ذاته على أنَّهحالةٌ مَرَضيّة، لأنّ الخوف حالةٌ نفسيةٌ يعيشها كلّ إنسان سوي على نحو طبيعي. نعم، قد يتحوّل الخوف إلى حالة مرضيّة فيما لو تجاوز حدّه الطّبيعي، كما هو شأن كلّ صفة إنسانية، ومؤشّر معرفة ذلك بأن يفقد الإنسان بسبب الخوف توازنه الطّبيعي في التعامل مع الأشياء. فلنسلِّم أنّ دافع حاجة الإنسان إلى الدِّين هو الخوف، ولكنّه لا يصلح أن يكون ذريعةً بيدهم، بل على العكس من ذلك هو حجةٌ قويةٌ بيد المتديّن، فإذا كان الإنسان يجد في اللّه سبحانه وتعالى أمانه وطمأنينته ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ سورة الرّعد، الآية:28، فما المشكلة في أن يكون الدّافع الذي يحرّك الإنسان نحو الإيمان باللّه تعالى هو الخوف الطّبيعي الذي يعيشه كلّ إنسان سويّ ليشعر بالأمان الدّنيوي، ويدفع عن نفسه الضّرر الأخروي.

هذا فضلاً عن أنّ هذا الشّعور بالخوف هو أحد الدّوافع التي تحرّك المُلحد نحو الله,تعالى، عندما تتقطّع به الأسباب الماديّة التي كان يتوسّل بها ليشعر بالأمان، يقول تعالى: ﴿**وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ**

1 - الصدر، محمد باقر، المرسل الرسول الرسالة، ص13-14.

كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلمُسرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعمَلُونَ﴾ سورة يونس، الآية:12، **﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلفُلكِ دَعَوُاْ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُم إِلَى ٱلبَرِّ إِذَا هُم يُشرِكُونَ﴾** سورة العنكبوت، الآية:65.

عن الإمام الحسن العسكريّ, عليه السّلام: «اللّه هو الذي يَتألَّه إليه عند الحوائج والشّدائد كلّ مخلوقٍ عند انقطاع الرّجاء من كلّ مَنْ دونه وتَقطُّعِ الأسباب من جميع من سواه» [1].

1 - الصّدوق، التوحيد، ص231.

المبحث الرابع:
الإيمان باللّه وليد الصراع بين الطبقات الاجتماعيّة

● أوّلًا: الإيمان بالله ناشئ عن الصراع الاقتصاديّ والتناقض الطبقيّ في المجتمع

يتبنى كارل ماركس أنّ التناقض الطبقي هو الذي يلعب الدور الأبرز في نشوء الإيمان بالله، إلّا أنّنا ننقل نص ماركس لأهميته في بيان فكرته، إذ قال: «إنّ الإنسان يصنع الدِّين، وليس الدين هو الذي يصنع الإنسان. يقينًا أنّ الدين هو وعي الذات والشعور بالذات لدى الإنسان الذي لم يجد بعد ذاته، أو الذي فقدها. لكن الإنسان ليس كائنًا مجرّدًا جاثمًا في مكان ما خارج العالم. الإنسان هو عالم الإنسان، الدولة، المجتمع. وهذه الدولة وهذا المجتمع ينتجان الدين، الوعي المقلوب للعالم، لأنّهما بالذات عالم مقلوب. الدين هو النظرية العامة لهذا العالم، خلاصته الموسوعية، منطقه في صيغته الشعبية، موضع اعتزازه الروحي، حماسته، تكريسه الأخلاقي، تكملته الاحتفالية، عزاؤه وتبريره الشاملان. أنّه التحقيق الوهمي للكائن الإنساني، لأنّ الكائن الإنساني لا يملك واقعًا حقيقيًّا. إذن فالصراع ضدّ الدين هو بصورة غير مباشرة صراع ضد العالم الذي يؤلّف الدين نكهته الروحية. إنّ التعاسة الدينية هي في شطر منها تعبير عن التعاسة الواقعية، وهي من جهة أخرى احتجاج على التعاسة الواقعية.

الدين زفرة الإنسان المسحوق، روح عالم لا قلب له، كما أنّه روح

الظـروف الاجتماعيّـة التي طرد منها الـروح. أنّه أفيون الشـعب، إنّ إلغاء الدين، من حيث هو سـعادة وهمية للشـعب، هو ما يتطلبه صنع سـعادته الفعلية. إن تطلب تخلي الشعب عن الوهم حول وضعه هو تطلب التخلي عـن وضع بحاجة إلى وهم. فنقد الدين هـو بداية نقد وادي الدموع الذي يؤلف الدين هالته العليا»[1].

فالماركسـيَّة لم ترض تفسير الدّين بأنّه «نشأ نتيجة لعجز الإنسان القديم وإحساسـه بالضعف، بين يدي الطبيعة وقواهـا المرعبة، وجهله بأسرارها وقوانينهـا...، لأنه يشـذ عن قاعدتهـا المركزية، فلا يربـط الدين بالوضع الاقتصاديّ، القائم على أسـاس الإنتاج الـذي يجب أن يكون هو المفسر والسـبب الوحيد»[2]، ومن هنا انطلقت الماركسـيَّة في البحث عن سـبب نشوء الدين من فهم طبيعة العلاقات الاقتصاديّة في المجتمع خصوصًا في التناقض الطبقي.

● ثانيًا: نقص التصوّران المعقولات لتفسـير نظرية الماركسيَّة في الإيمان بالله

وثمـة تصوّران تقدّمهما الماركسـيَّة في كيفية نشـوء الدّين عن التناقض الطبقـي في المجتمـع، أوضحهـما جـورج بولتزير- في تتمـة نصّه الذي تقـدّم في بداية البحث- حيث يقول: «تسـتخدم الطبقات المُسـتغِلة هذه

1 - ماركس، نقد فلسفة الحق عند هيجل، نقلاً عن: الحوار المتمدن، العدد: 3362- 2011/5/11م.

2 - الصدر، محمد باقر، اقتصادنا، ص107-108.

الخاصية لاهتمامها بإخفاء استغلالها عن أعين الطبقات الكادحة، فهي بحاجة إلى سلبية هذه الطبقات وجمودها، كي يستمر اضطهادها، كما أنّها بحاجة لخضوعها وإيمانها بالقضاء المحتوم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يجب توجيه أمل الجماهير بالسعادة نحو العالم الآخر، وهكذا يعوّض الأمل والعزاء بدخول الجنة على أنّهما تعويض عمّا بذلته الطبقات الشعبية من تضحية على الأرض فيتحول الاعتقاد بخلود النفس الذي كان ينظر إليه في القدم على أنّه مصيبة مرهقة إلى أمل بالخلاص في الآخرة فاستخدمت الديانة منذ أقدم العصور كقوة فكرية للمحافظة على النظام وكأفيون للشعوب حسب ما يقول ماركس»[1].

فالتصورّ الأول: أنّ الدّين مُخدِّر أفيوني تعطيه الطبقة المُستغِلة للفئات المُضطهَدة، لتخدّرها فتستلسم لواقع البؤس، وتعتكف عن المطالبة بحقوقها من الطبقة الحاكمة.

وهي بهذا تغض النظر عن الحراك النبوي الممتد في التاريخ، والذي يدلل على أنّ الدين كان ينشأ دائمًا في أحضان الفقراء والبائسين، قبل أن يغمر بنوره المجتمع كله. فكيف يمكن أن يُفسَّر الدين على أنّه نتاج للطبقة الحاكمة المالكة المسيطرة، خلقته لتخدير المضطهدين وحماية مصالحها؟!!

فهل كان -مثلاً- من مصلحة طبقة أغنياء مكة المكرّمة في عهد الدعوة المحمديّة، أن تجعل الدين الإسلاميّ أداة فعالة في القضاء على الاقتصاد

1 - بولتزر، أصول الفلسفة الماركسية، ج1، ص208.

الرأسماليّ الربوي الذي كان يعود على أغنياء مكة بثروات هائلة وأرباح طائلة قبل أن يتشدّد القرآن في تحريمه كما في قوله تعالى: (**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) سورة البقرة، الآية:275.

هل كان من مصلحة أغنياء مكة التنازل عن أرستقراطيَّتهم وتسخّر الدين للدعوة إلى أنّه لا فضل لغني على فقير, ولا عربي على أعجمي, ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى، وفرض الضرائب المالية من الزكاة والخمس وغيرها على الأغنياء، فتصنع دينًا يؤدي وجوده إلى عدمها؟!!

أمّا التصوّر الثاني: أنّ الطبقة المُستغَلة الفقيرة البائسة هي التي تصنع الدّين لنفسها لتجد فيها عزاء لها فتمتلأ نفوس الفقراء بالأمل بالتعويض عن بؤسهم بدخول الجنة بسبب التضحية والفقر.

ولكن دراسة تاريخ المجتمعات البدائيّة، التي تحسبها الماركسيَّة، تعيش في حالة شيوعيّة لا طبقيّة، يعطينا انطباعاً أنّها قد «مارست هذا اللون من التفكير، وظهرت فيها العقيدة الدينية بأشكال شتى. فلا يمكن أن يفسر الدين تفسيراً طبقيًّا، أو أن يعدَّ انعكاسًا عقليًّا لظروف الاضطهاد التي تحيط بالطبقة المُستغلَة، ما دام قد وجد في حياة الإنسان العقلية، قبل أن يوجد التركيب الطبقي، وقبل أن يغرق الوادي بدموع البائسين والمستغلين. فكيف تستطيع الماركسيَّة بعد هذا أن تجعل من الوضع الاقتصاديّ أساسا لتفسير الدين؟! (...)

وكيف يمكن أن نفسر وجود العقيدة الدينية، منفصلة عن الواقع السيء، وظروف الاضطهاد الاقتصاديّ؟!...

إن الماركسيَّة لا يمكنها أن تنكر وجود العقيدة الدينية، عند أشخاص لا يمتُّون إلى ظروف الاضطهاد الاقتصاديّ بصلة، وصلابة العقيدة في نفوس بعضهم، إلى درجة تدفعهم إلى التضحية بنفوسهم في سبيلها. وهذا يبرهن -بوضوح- على أنّ المُفكِّر لا يستوحي فكرة إيديولوجية -دائمًا- من واقعه الاقتصاديّ، لأن الفكرة الدينية عند أولئك الأشخاص، لم تكن تعبيراً عن بؤسهم، وتنفيسًا عن شقائهم، وبالتالي لم تكن انعكاسًا لظروفهم الاقتصاديّة، وإنما كانت عقيدة تجاوبت مع شروطهم النفسيّة والعقليّة، فآمنوا بها على أساس فكريٍّ»[1].

فتفسير الماركسيَّة لنشوء الدّين من السخافة بمكان واضح لأنّ الإيمان بالله تعالى سبق في تاريخ البشريّة أي تناقضات وصراعات من هذا القبيل الذي تصوّره الماركسيَّة.

وعلى كلّ حال، لا شكّ في وجود طبقتين اجتماعيتين في تاريخ الإنسان، والقرآن الكريم يحدّثنا عن وجود المُستغِلّين والمستكبرين والمضطَّهدين من جهة، ووجود المُستغَلّين والمستضعفين والمضطهَدين من جهة ثانية، ولكن التديّن والإلحاد يجتمعان مع كلا الطبقتين، ففي الطبقة الأولى ثمة متديّنين وملحدين وكذلك الأمر في الطبقة الثانية، وهذا مؤشّر إلى أنّ نشوء التديّن لا علاقة له بالتناقض الطبقي بين الفئتين.

1 - انظر: الصدر، اقتصادنا، مصدر سابق، ص118.

وثالثًـا أنّ المنطـق الإسـلاميّ في النظر إلى الاسـتكبار والاسـتضعاف يقـوم على منظور آخـر غير المنظـور الماركسي، فليس دائمًا الاسـتكبار والاسـتضعاف منشـؤه العامل الاقتصاديّ والاجتماعيّ، بل ثمة اسـتكبار واسـتضعاف لـه منشـأ آخـر أهـم يشـكّل محورهـما وهـو في المنطق القرآني الاسـتكبار القائم على أسـاس الكفر والـشرك والنفاق والترف ... والاسـتضعاف القائم على أساس التوحيد والإيمان والتديّن، فهو اضطهاد قائم على أسـاس الاختـلاف في العقيدة، وغالبًا بل دائمًـا ما كانت حركة الـصراع بين الأنبيـاء وأقوامهم من هذا النـوع دون الصراع المتمحّض في البعديـن الاقتصـاديّ والاجتماعيّ، وإلّا فإنّ في المعسـكر الأول طبقتين اجتماعيتين غنية وفقيره تقوم الأولى باسـتغلال الثانية دون أن يكون ذلك منشـأً لاختلاف الدين بينهما، بل تقوم عقيدة الطبقتين على الوثنية والشرك مثلاً دون أن نلاحظ صراعاً وتناقضاً عميقاً بينهما.

الفصل الرابع:

نموذجان من الملحدين المعاصرين
(ريتشارد دوكنز، وستيفن هوكنغ)

المبحث الأوّل:
عالم الأحياء التطوّريّة ريتشارد دوكنز

● **أوّلًا: إلحاد ريتشارد دوكنز «وَهَم الإله»**

عام 1976م نشر ريتشارد دوكنز كتابه «الجين الأنانيّ»، ومنذ ذلك الوقت بدأت شهرته في حقل البيولوجيا التطوّريّة، وقد عُرِف عنه اتجاهه الإلحادي ونزعتـه التي تنكر وجود المصمّم الـذكيّ والصانع لهذا العالَم، وقد تبلور ذلـك بوضوح في كتابـه «وهم الإله» الذي قـارب ال400 صفحة، والذي قصد به إثبات أنَّ الله مجرّد وهَم، اخترعه أناس مجانين، وهدف من ورائه حسبما صرّح في الكتاب أن يصبح القارئ المتديّن ملحدًا بعد الانتهاء من قراءة الكتاب، لأنّه سيتكشـف أنّه لا يوجـد أدلة على الإيمان بالله,تعالى، وأنّ إيمانـه مجرّد ثقـة عمياء بأولئك المجانين الّذيـن أوهموا المؤمن بأنّه يوجد حجّة عـلى إيمانه، في حين أنّ عليه أن لا يبني إيمانه على الأوهام، بل عليه فحص معتقداته، ليخرج من حالة الطفولة في التفكير التي طابعها الإيمـان بالله إلى النضـج الفكريّ المعتمد على البراهـين التي تنفي هذا الاعتقاد الـذي يعود إلى مرحلة من تاريخ الإنسـان كانت تعتقد بالأوهام والأساطير والخرافات، التي ينبغي تجاوزها اليوم في عصر العلم.

● **ثانيًا: نقض كون الإيمان بالله مرحلة طفولة من التفكير البشريّ:**

وقـد غفل دوكنز عـن أنّه ثمة الكثير من الأشـخاص إنمّـا يؤمنون بالله

تعـالى بعد أن يتجاوزوا مرحلة الطفولة في التفكير ويبلغوا مرحلة النضج، فيراجعوا ذواتهم، فيكتشفوا الله, تعالى في حياتهم،

فهذا چون فندلي، في سنة 1955 دحض وجود الله، لكنه في كتابه: الصعود إلى المطلـق Ascent to the Absolute"، الذي نشره عام 1970م، رجع عن فكرته وأثبت أن العقل والبصيرة والمشيئة مجتمعة في الإله القائم بذاته...

وهـذا ما نلاحظه عند أنطوني فلو الفيلسـوف البريطـانيّ الملحد الذي آمن بالله تعالى في سـنّ الثمانين، وصاحب كتاب: THERE IS A GOD «هنـاك إله»[1]، وكذلك عند ليسـتر إدغار ماكغراث عـالم الفيزياء الملحد الذي أصبح مؤمنًا بل عالم لاهوت والذي ألّف كتاب «إله دوكنز»، وكتاب «وهم دوكنز»، وكذلك بول فيتز الذّي سـار في طريق الإلحاد والشـكوكيّة ما يقارب الـ20 عامًا، منذ أن كان عمره 18 سـنة إلى سـن 38، حيث يذكر في كتابه «سيكولوجية الإلحاد» أو نفسيّة الإلحاد، أنّ نتيجة خبرته الخاصّة هي أنّ الأسباب التي جعلته ملحدًا ومتشكّكًا كانت سطحيّة، وغير منطقيّة، وبلا نزاهة فكريّة أو أخلاقيّة، وأنه مقتنع أنّ الأسـباب نفسـها هي الشـائعة الآن بين الملحدين.

وكذلـك فرانسـيز كولينز الذي كان ملحـدًا وترك الإلحـاد إلى الإيمان بوجـود الله,تعالى، نشر كتاب «لغة الله»، الذي يثبـت فيه أنّ هذا التنظيم العجيب في الطبيعة يشير إلى وجود إله خالق.

1 - فلو أنتوني، مع روي إبراهام فارجيس، هناك إله- كيف غيّر أشرس ملاحدة العالم أفكاره؟!، ط1، 2017م.

● **ثالثًا: نقــض إصرار دوكنز على أن العالِم الحقيقيّ لا يكون إلّا ملحدًا:**

ومــع ذلك لا نفهم لماذا يصرّ دوكنز على أنّ العلماء الحقيقيّين لا يمكن أن يكونوا إلّا ملحدين؟!!

أليــس أُوِن غينغريتش Owen Gingerich، عــالم فلك بارز من جامعة هارفــرد، وقد نشر كتــاب «كون اللــه» God's Universe ، حيث أعلن فيه أنّ «الكــون خُلق لغاية وهدف، وأنَّ هذا الاعتقاد لا يتناقض مع المســعى العلميّ».

ألم ينــشر عالم الكونيّات بول دافيس كتابه «لغز كولديلوكس»، مســلّطًا الضوء على وجود قانون شــامل يقوم على أســاس التوافق الحيويّ الدقيق في الكون الّذي يُحرّكه باتجاه تطور الحياة والعقل؟!!

بــل نلاحظ دوكنز يتّهــم كلّ عالم رياديّ يعتقد باللــه, تعالى, بأنّه خائن، فمثلاً يعدُّ دوكنز تصريح فريمان دايســون -وهو عالم فيزياء رُشّــح لجائزة نوبل على عمله في الديناميكيا الكهربائيّة الكميّة، وحاز جائزة تمبلتون في الدّين عام 2000م- عن إنجازات الدّين، بأنّه عملٌ جبانٌ وخيانة[1].

فالحقيقة أنّه قد صدق روي أبراهام فارجيس في وصفه لدوكنز وغيره من الملاحدة عندما شــنّوا حملوا عنيفة على تحوّل أنتوني فلو من الإلحاد إلى الإيمان بالله,تعالى، حيث يقول بحقّهم: إنّ الأشــخاص أنفســهم «الذين ندّدوا بمحاكم التفتيش وبحرق الســاحرات على الأوتاد، يســتمتعون الآن

1 - Dawkins, The God Delusion, p. 152.

بقليـل من مطـاردة الخارجـين عن منهجهم. دعـاة التسـامح، لم يكونوا متسامحين على الإطلاق. أصبح من الواضح، أن المتديِّنين المتعصِّبين لا يحتكرون وحدهم الدوجمائية والفظاظة والرجعيّة والبارانويا»[1].

● **رابعًـا: ريتشـارد دوكنز: البيولوجيـا التطوّريّة قضت على فكرة الإيمان بالله:**

يعتقد دوكنز -محقًّا- أنّ الإيمان ليس مجرّد حالة فكريّة، بل يمثّل المعتقد كلّ شيء في حياة الإنسـان، فحياة الإنسـان هي وليد معتقداته[2]. فدوكنز داعية ملحد ولا دينيّ، فالدعاة لا يختصّون بالحالة الإسلاميّة، والمبشّرون لا يختصّون بالحالة المسيحيّة، بل هناك دعاة ومبشِّرون ملحدون، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف.

هذه الثقة عند دوكنز تعتمد على إيمانه بأنّ البيولوجيا التطوّرية هي الأداة التي ستقضي على الإيمان بالله,تعالى، لأنّه من وجهة نظر دوكنز لا ينهض المنهج العلمي المستخدم في العلوم الطبيعيَّة لإثبات وجود الله، وبالتالي فإنّ البيولوجيا سـتوجه الضرب القاضيـة إلى هذا الفيروس المعدي الّذي هـو الإيمان بالله وتمهِّد السـبيل أمام الإلحاد ليحلّ محـلّ الاعتقاد بالله ويعالج مرض البشريّة من وهمها.

ولـذا يقول دوكنز في هذا المجال: «لقد طرد دارون الإله من البيولوجيا،

1 - فلو، هناك إله، مصدر سابق، ص15.

2 - Dawkins, The God Delusion. P.38.

ولكــنّ الوضــع في الفيزياء بقــي أقل وضوحــاً، ويُســدّد هوكينج الضربة القاضية الآن».

فدوكنــز كحال كثير من الملحدين يروّجــون أنّ الإلحاد هو قرار علميّ، بمعنى أنّه مســتند إلى العلوم التجريبيَّة، أمّا الاعتقاد بالله, تعالى, فهو خيار لا عقلانيّ يستند إلى مسوِّغات نفسيّة واجتماعيّة وسياسيّة...

● **خامسًا: علم الأحياء بين الحياد وإثبات وجود الله، تعالى:**

لقد أثبتنا فيما سبق أنّ المنهج العلمي يُثبت وجود الله,تعالى، وسنعرض الدليل العلميّ في آخر هــذا الفصل على ذلك، ولكن إذا تجاوزنا اعتقادنا بأنّ العلــوم الطبيعيَّة قادرة على إثبات أنّ المصمّــم الذكي والصانع العالِم القادر موجود، كما ذكرنا في دليل الشــهيد الســيد محمد باقر الصدر، فإنّ البيولوجيّــا أو العلــوم الطبيعيَّة ككل في الحــدّ الأدنى لا تُثبت عدم وجود الإله، وإنّما هي محايدة، وقد صرّح بذلك أحد أبرز أساتذة جامعة هارفرد جاي غولد، فمع أنّه مُلحد إلّا أنّه قال: إنّ العلوم الطبيعيَّة تتناغم مع الإلحاد ومــع الإيمان بالله على نحو متكافــئ[1]. وفي كتاب[2] "Rocks of Ages" وبالنظر إلى أنّ بعض علماء علم الأحياء التطوريّ هم من المعتقدين بفكرة وجود إله خالق للحياة، يقول إمّا أن يصنِّف زملاءه من الأســاتذة والعلماء

1 - Stephen Jay Gould, Impeaching a Self-Appointed Judge, Scientific American, (1992), pp.21118-.

2 - Stephen Jay Gould, Rocks of Ages: Science and Religion in the Fullness of Life, 2002.

الّذين لهم وجهة النظر هذه بأنّهم أغبياء، وإمّا أن علم الداروينيّة ينسجم مع الاعتقاد بوجـود إله، كما أنّه يتوافق مع الفكـر الإلحاديّ، وبالتالي يمكن تفسـير الظواهر الطبيعيَّـة برؤية توحيديّة، وكذلك برؤيـة إلحاديّة، دون أن تكون النتيجة حاسمة لأحد الطرفين.

كما يقول ليسـتر ماكغراث : «من المعـروف أنّ العالَم الطبيعيّ طيِّعٌ من الناحيـة النظريّة. ويمكن تفسـيره في عدد من الطرائـق المختلفة دون أيّ خسـارة للنزاهة الفكريّة. يقرأ بعضهم الطبيعـة أو يفسّرها بطريقة مُلحدة. وآخـرون يقرؤونها بطريقة توحيديّة، فيرَون أنّها تشـير إلى أُلوهيّة الخالق، الذي لم يعد مشـغولاً في شـؤونها. فالله يعبّئ السـاعة ثـمّ يتركها تعمل وحدها. ويأخذ آخرون وجهة نظر مسيحيّة، مؤمنين بإله يخلق ويديم على حدّ سـواء. وآخرون لديهـم وجهة نظر أكثر روحانيـة، متحدّثين بغموض أكثر عن نوع من «قوة الحياة».

الأمر بسيط: الطبيعة مفتوحة على مروحة من التفسيرات الشرعيّة. فيمكن تفسـيرها بطرائق إلحاديّة أو ربوبيّة أو إيمانيّة أو غيرها- لكنّها لا تتطلّب أن تُفـسّر بأيٍّ من هذه. يمكـن للمرء أنّ يكون عالِمًا حقيقيًّا دون أنّ يلتزم بأيّ نظرة للعالم سواء كانت دينيّة أو روحيّة أو معادية للدين»[1].

وجهة النظر هذه أثارت حنق دوكنز، لأنّها تنسـف الأسس التي أقام عليه حججه الواهية[2].

1 - ماكغراث، ليستر إدغار، وجوانا كوليكات ماكغراث، وهم دوكينز- الأصوليّة الملحدة وإنكار الإله، ص47.

2 - Dawkins, The God Delusion , p. 57.

● **سادسًـا: الوعي والحياة والتعقيد في شريط الـ "DNA" سبب إيماني بالله، تعالى:**

أنطوني فلو الذي تقدّمت الإشـارة إليه صاحب كتاب: «هناك إله»، وقد ألّفـه قبل ثلاثة سـنوات من موته، وفلـو هو مـن أشرس المنظّرين للفكر الإلحادي على مدى 50 سنة، وله أكثر من 30 كتابًا في هذا المجال، كرّس حياتـه لإثبات أنّه ليس هناك إلـه THERE IS NO GOD، ثم ختم حياته بأنّ هناك إله THERE IS A GOD ، مستشهدًا بقوانين الطبيعة نفسها على وجـود الله,تعالى، وتحت تأثير الصدمة خرج بعـض الملحدين لينفي أن يكـون الكتاب من تأليـف فلو لأنّه عجوز مريض، حتى خرج فلو بنفسـه وأقرّ بمسؤوليّته عمّا ورد في الكتاب.

يقـول أنتـوني في كتابه: إنّ التعقيـد العالي والمثير للدهشـة في شريط الـ "DNA" في الخليّـة الحيّة كان له الدور الأسـاس في قناعته بأنّ هناك مصمّمًا ذكيًّا عظيمًا في هذا الكون.

إنّ أهـم ظاهرة كونيّة وطبيعيّة تشـكّل تحدِّيًا أمـام الملحدين، ويتهرّبون منها، والتي هي خير دليل على التصميم الذكيّ والصانع العالِم، هي وجود العقل والوعي والحياة في المادة، وهي مظاهر مثيرة للدهشة، حيث إنّهم إمّا يعترفون بالعجز أمام هذه الظواهر فيفشلون في تفسيرها، وإمّا يلجؤون إلى عامـل الحظّ المصادفةوالمصادفة كما فعل دوكنز عندما تكلّم على الوعي والعقـل والحياة,وأنَّها هي ظواهر انطلقت دفعـة واحدة لمرة واحدة نتيجة عامل ضربة الحظ، وبعضهم منهم يتجنّب النقاش حول المسألة كما كتب وولبـورت: «قمت عمدًا [!] بتجنّب أي نقاش عـن الوعي؛ الذي لم يفهم

منه إلاّ القليــل إلى الآن»، وبعضهم أمثال دينيت وهو ملحد عنيد، يتحدث عن نشــأة الوعي بقوله: «ثم حدثت المعجزة»، أي هو أمر خارج التفســير. فليس هناك أي ملحد اســتطاع أن يُقدِّم أي رؤية منطقيّة عن الحياة والوعي في الكون ضمن قوانين خاصّة تسيّرها على نحوٍ عقلانيّ منظّم[1]...

● **سابعًا: دوكنز كذَّاب مشعوذ:**

إنّ أمثال دوكنز يكتمون البيّنات، ويلوون عنق الحقيقة العلميّة، ويمارسون الدّجل والشــعوذة والكذب بزخارف بلاغيّة ولفظيّــة ومصطلحات علميّة، وهم يعرفون أنّ العلــوم الطبيعيَّة في الحدّ الأدنى لا تنهض على إثبات اللا إله، بــل أقصى حدّ ليس لها موقف. فدوكنز، هو الذي يعيش وهمًا ومرضًا أصيــب به نتيجة فيروس «اللا إله»، لأنّه بمحاولة تلحيد العلوم الطبيعيَّة أي القول بأنّها علوم مُلحِدة، ينتهك القســم العلميّ الذي أخذه على نفســه في عدم توظيف العلوم إلاّ في حقلها الخاصّ بها وعدم استغلالها إيديولوجيًّا للتطــرف الإلحاديّ في محاربة الإيمان بالله، الذي طالما عاش الملحدون أمل أن الاســتيقاظ صباحًا ليجدوا العالم خاليًّا من الإيمان بالله,تعالى، ثم يشــتد حضور الله، تعــالى، في حياة البشر أكثر فأكثر، فــإنّ أزمة كوفيد 19 قد بلورت كيفية لجوءالإنســان في لحظات الأزمــات إلى الله حيث يعجز العلم التجريبيّ عن تلبية حاجاته، كلّما انصرم الزمان وسارت البشريّة تجاه المســتقبل كلّما تعمّقت فكرة الإيمان نتيجة الشــعور بفراغ الحياة الماديّة،

1 - انظر: فلو، هناك إله، ص 21.

الإنسان مهما أشبع حاجاته الماديّة فإنّه يبقى يعيش حالة القلق والاضطراب والكآبة، بل كلما أشبع حاجاته المادية ولذاته الحسيّة أكثر كلّما غرق في بحر الأمراض النفسيّة والاضطرابات أكثر، لأنّه بطبيعته كائن روحيّ ينجذب إلى الأعلى، فما لم يعثر على المثل الأعلى في حياته -أي الله- فإنه سيبقى مضّطرب النفس هلوعًا، لأنّ الطمأنينة والسكون إنّما تحصل في ظلّ حضور الله تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[1]، (إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا)[2]... إلخ.

فكلّما أعلن أحد هؤلاء الملحدين «موت الله»، كما فعل نيتشه، أو سارتر أو غيرهما، وجدنا أن الله, تعالى, يشتدّ حضوره في حياة البشر.

ونلاحظ أن دوكنز يعقد مبحثًا خاصًّا ليناقش فيه أنّه إذا كان هناك إله ومصمّم ذكيّ فإنّه يكون على مستوى عالٍ من التعقيد، وهذا يستدعي أن نجد تفسيراً للسؤال التالي: من صمَّم هذا المصمّم العظيم؟ وبما أنّ المصمّم هو أكثر تعقيدًا من التصميم نفسه، فإنّ الإيمان بوجود الله يعني الإيمان بوجود ما هو أكثر تعقيدًا من التصميم نفسه، وهذا يستدعي تفسيراً، وحجّة المتديّنين تعتمد على فكرة المتراجعة اللانهائيّة، فكلّما سألتهم عن ذلك استحضروا استحالة التسلسل، وهو تراجع زمنيّ لا يصلح أن يكون تفسيراً، ومع ذلك يعيش دوكنز حالة التحيّر حول كيفيّة وجود البشريّة في هذا الكون في نقطة صالحة للحياة.

وسنعقد المبحث الثالث لمناقشة هذه الفكرة.

1 - سورة الرعد، الآية: 28.

2 - سورة فصلت، الآية: 30.

المبحث الثاني:
عالم الفيزياء الكونيّة ستيفن هوكنغ

● **أوّلًا: ستيفن هوكنغ وكتابه التصميم العظيم:**

عالم الفيزياء الشّهير ستيفن هوكنغ، له مجموعة من الكتب حاول فيها إثبات نظرية بديلة عن الألوهية لتفسير وجود الكون والعالَم، وأنّ هذا التصميم الذكيّ الذي نشاهده في الكون ليس وليد مُصمِّم ذكي وإله عالِم وصانع مُتقِن، ومن أهمّ كتبه «التصميم العظيم»[1] The Grand Design، ويشاركه فيه صديقه «ليوناردو ملدينو»، الذي حاول فيه الإجابة عن الأسئلة المصيريّة الكبرى التي تضغط على عقل كلّ إنسان، والتي ذكرها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب, عليه السّلام في الحديث المنسوب إليه: «من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟»، فهوكنغ اعتبر أن كتابه هو مناقشة لمجموعة هذه الأسئلة: لماذا هناك وجود؟ ولماذا وُجِد البشر في هذا الكون؟ ولماذا هناك هذ المجموعة من القوانين التي تحكم الكون وليست قوانين أخرى مغايرة؟ كيف يتصرف هذا الكون؟ ما هي طبيعة الواقع والوجود؟ هل يحتاج هذا الكون إلى خالق؟... مُعتبِرًا أنّه استطاع في كتابه أن يقدم أطروحة عن هذه الأسئلة التي شغلت الفكر البشريّ منذ آلاف السنين، تغنيه عن اللجوء إلى نظرية الأديان في تفسير الأكوان، وأنّ الله هو منشأ

1 - انظر: ستيفن هوكينغ، وليونارد مولدينوو، التصميم العظيم، إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى، ترجمة أيمن أحمد عياد، دار التنوير، بيروت، ط1، 2013م.

الكون، أطلق عليها نظرية «تعدّد الأكوان» أو «الأكوان المتعدِّدة».

● **ثانيًا: هوكنغ يخرج من العلم ويدخل بيت الفلسفة:**

كما لاحظنا عند ريتشارد دوكنز، إنّ هوكنغ ،وإن حاول أن يعتمد على مقدِّمات علميّة, لكنه في النتيجة دخل المجال الفلسفيّ الذي ليس من اختصاصه، فإنّ الملحدين دائمًا ما ينطلقون من قواعد علميّة ليستنتجوا خلاصات فلسفيّة، وهذه مفارقة عجيبة في منهجية التفكير، فإمّا أن تعتمد العلم أي الملاحظة الحسيّة والمنهج القائم على أساس الاستقراء والتجربة وتتحرّك معه إلى آخر الخطّ على مستوى النتائج والخلاصات، وتكون مُخلِصًا لمنهجك العلميّ، وإمّا أن تسكت، وليس من حقِّك أن تدخل إلى حقل الفلسفة، إلّا أن تؤمن بأنّ المنهج العلميّ ليس هو الوحيد الذي يتكفّل بالكشف عن الحقيقة، وأنّ المعرفة البشريّة يمكن أن تعتمد العقل في عملية التفكير للوصول إلى فهم الوجود والكون، وحينها إذا دخلت إلى هذه الدائرة، فأنت -أي الملحد المُنظِّر- فقد خلعت رداء الفيزياء أو البيولوجيا أو علم الفلك أو غيرها من العلوم الطبيعيَّة، ولبست ثوب الفلسفة، وحينها تُحاكَم كفيلسوف لا كعالم فيزياء أو أحياء، ولي من حقّك أن تُطالِب الآخرين أن يعاملوك خارج دائرة اختصاصك بصفتك كعالِم بل كفيلسوف.

والذي نلاحظه عند هوكنغ، أنّه يعي في ذاته أنّ هذه الأسئلة هي أسئلة فلسفيّة، ولكنه يحاول أن يتهرّب من ذلك ، حيث يقول: «في العادة، فإنّ هذه الأسئلة أسئلة فلسفيّة، ولكن الفلسفة ميّتة، لأنّها لم تتواكب مع

التطوّرات الحديثة في العلوم، وبالخصوص في علوم الفيزياء، وبناءًعليه؛ فقد حمل علماء الطبيعة شعلة الاستكشاف والبحث، وهدف هذا الكتاب هو تقديم إجابات من وحي الاكتشافات والنظريَّات الحديثة»[1].

وهـذه الفكرة غـير خاصة بهوكينـغ، فقد أشرنا سـابقًا إلى أنّ ريتشـارد دوكنـز قال: إنّ السـؤال عن الخالق هو سـؤال علميّ، وقد سـبقهما إلى ذلك الفلاسـفة التجريبيّون والمنطقيَّة الوضعيّة، إذْ أرادوا أن يجعلوا العلم أو البحـث الاسـتقرائيّ يقوم مقـام العقـل أو البحث الفلسـفي أو الفكر الاستنباطي، ولم تنجح هذه المحاولة، إذ سريعًا ما وجدوا أنفسهم بحاجة إلى الفلسـفة، فلجأت الوضعية المنطقيَّة للقول بأنّ الفلسفة فقط وظيفتها تحليل العبارات العلميّة.

إنّ الفلسفة بمعنى النظر العقليّ في الكون، لن تموت طالما أنّ هذه الأسئلة الوجوديّة المصيرية تطرق أبواب الذهن البشريّ، فالفلسفة ستبقى حيّة مادام الإنسان العاقل حيًّا، فإنّ البحث في الوجود والعدم وطبيعة الواقعيّة والعلل والأسـباب والقدم والحدوث والمادة ليس بحثًـا فيزيائيًّا، وإن كان من حقّ الفيزيـاء أن تتدخـل أحيانًا فيما يدخل تحت موضوعها كالمـادة الفيزيائيّة، ولكن البحث عن هذه المفاهيم هو بحث فلسفيّ بامتياز، واختلاف الأسماء لـن يغيّر الوقائع والحقائـق، وحينها نقول لدوكنز وهوكنغ ورسـل وغيرهم أهلاً وسهلاً بكم في بيتنا وحقل اختصاصنا أي الفلسفة.

1 - نقلاً عن: اللواتي، المُصمِّم الأعظم قراءة نقدية في كتاب التصميم العظيم لستيفن هوكنج، ص 14.

● **ثالثًا: الإلحاد بين نظرية الإثبات والفرضية المُحتَملة:**

ومن الناحية المنهجيَّة المفارقة الغريبة أيضًا التي يقع فيها هؤلاء، أنّهم في الوقت نفسه الّذي يعدُّون أنّ ما توصّلوا إليه هو نظرية إثبات، نراها عند المحاكمة في ضوء منهجهم أنّها لا تعدو أن تكون فرضية راجحة وليست نظرية إثبات، بحيث لا تُلغي احتماليّة تفسير الكون بفرضية أخرى وهي الألوهية، أي أنّ أقصى ما يمكن أن يصل إليه البحث العلميّ عندهم إلى نتيجة مفادها أنّ التفسير الأرجح للكون هو في عدم وجود إله، لا أنّه لا يوجد إله، فمثلاً عندما يقول هوكنغ: إذا ما استطاع نموذجان أو نظريتان وصف الظواهر نفسها، فلا يمكننا القول إنّ أحدهما أكثر واقعيّة من الآخر، بل نكون أحرارًا في اعتماد النموذج الذي نجده مريحًا أكثر لنا»، ويدّعم وجهة نظره هذه بقوله: «إنّنا وجدنا في تاريخ العلم سلسلة من النظريَّات والنماذج العلميّة التي كانت تتحسَّن مع تغيُّرها في وصفها للواقع؛ فمن نظريَّات أفلاطون إلى نظريَّات الفيزياء الكلاسيكية لنيوتن، إلى نظريَّات الفيزياء الكمِّيَّة الحديثة. وبناءًعليه؛ فمن حقنا أن نسأل: هل ستصل تلك السلسلة من النظريَّات إلى نهاية قصوى، ونظرية عُظمى؛ لتفسير الظواهر الكونيّة؛ بحيث تشمل كلَّ القوى الطبيعيَّة، وتقدِّم كلَّ التنبؤات المطلوبة لكل الملاحظات التي يُكن أن نجريها لكل شيء، أو أننا سنستمرُ للأبد في اكتشاف نظريَّات أفضل مما لدينا، ولن نصل إلى تلك النظرية التي لا يُكن تحسينها أو تطويرها أو استبدالها بغيرها؟ إننا لا نملك إجابة عن هذا السؤال حاليًا، ولكن لدينا مرشح لمثل هذه النظرية،

إن كان ثمة نظرية كهذه»[1].

خصوصًا أنّ هوكنغ يعود في بعض أجزاء كتابه ليتحدّث عن نموذج السمكة الذهبيّة، الموضوعة في وعاء مكوَّر، والتي ترى العالم من حولها من خلاله، فتفسّر القوانين العلميّة في ضوء رؤيتها للأشياء لخلاف نظرتنا نحن لها، وحينها يمكن القول: إنّ كلّ النماذج العلمية لوصف الواقع وفهم الكون قد تكون في جانب من جوانبها ناجحة، لأنّه صورة تقريبيّة عن الواقع وليس حقيقة الواقع كما هو في ذاته، وبالتالي تبقى كلّ نظرية قابلة للتعديل والتطوير والتحسين مع مرور الوقت، وقد لا نصل إلى قراءة وصفيّة للواقع في المستقبل تُعبِّر عند على نحوٍ دقيق تمامًا.

وبناء عليه، إنّ منهجية التفكير هذه القائمة على أساس هذه الرؤية المعرفيّة الخاصّة -وهي بعيدة تمامًا عن البحث العلميّ، فهي قراءة إبستمولوجيّة لكيفيَّة عمل العقل البشريّ وحواسّه واستنتاجته للقوانين، وليست بحثًا في الفيزياء، وإن استفادت من مقدِّمات فيزيائيّة، ولكن أخذ مقدّمة علميّة في دليل استنباطيّ لا يحوِّل النتيجة إلى علميّة-، لا يمكنها إقصاء أن يكون النموذج العلميّ لتفسير الكون على أساس نظرية الألوهية أمرًا غير مُحتمَل، وحينها يتأكّد تكرارًا ومرارًا ما ذكرنا سابقًا من أنّ الإلحاد الواقعيّ بمعنى الاعتقاد اليقيني بعدم وجود الله ليس له مكان في هذا العالم حتى عند أشدّ الملحدين تعصّبًا.

1 - نقلاً عن: اللواتي، المُصمِّم الأعظم، ص16-17.

● **رابعًا: القوانين الفيزيائيّة بين التفسير العلميّ والتفسير الدينيّ:**

يفسِّر هوكنغ بناء لنظريته هذه قضية الألوهية في حياة البشر، وهو لا يأتي بجديد، بل يردّد مقولات من سبقه من الملحدين كبرتراند رسل والماركسيّين حول الجهل، فيعدُّ «جهل البشر في القِدَم بطرق الطبيعة، أدّى بهم إلى اختراع آلهة تُعزى إليها كلّ مناحي الحياة البشريّة»، فكانت فكرة الإله هي النموذج العلميّ لوصف الواقع عند تلك الجماعات، وبما أنّ العلم اكتشف أسرار الطبيعة، فإنّ النظريَّات الحديثة القائمة على أساس علم الفيزياء تحلّ محلّ ذلك النموذج في تفسير ظواهر الطبيعة، فتكون الفيزياء هي النموذج العلمي لوصف الواقع بدل نظرية الألوهية المتولِّدة من الجهل، وهو هنا لا يختلف عن ما ذكره أوجست كونت قبله.

ويرى هوكنغ أنّه لا شكّ في أنّ الطبيعة محكومة لمجموعة من القوانين، وهذا أمر حسيٌّ مُشاهد، ولكن سابقًا كان البشر يفسِّرون القوانين الطبيعيَّة والفيزيائيّة على أساس إلهيّ، فالله هو الذي أنشأ هذه القوانين الكونيّة، والعقائد الدينيّة تعتبر أنّه يمكن وجود حالات استثناء لهذها لقوانين الكونية كما في معجزات الأنبياء، ويقول هوكنغ بأنّ «هذه الإجابة لا تُعطي تعريفًا للإله أكثر من كونه مُجرَّد تجسيم لمجموع قوانين الطبيعة»، وبالتالي هذه النظرية ليست إلّا عملية استبدال لغز -وهو منشأ قوانين الطبيعة- بسرّ غامض آخر – الله-، فلا تُقدِّم تفسيراً علميًّا.

ويطرح هوكنغ سؤالاً ثالثًا: هل هناك مجموعة واحدة من القوانين الطبيعيَّة؟ وبعبارة أخرى هل هذه القوانين الحاكمة على الكون هي القوانين الوحيدة الممكنة؟ أم يُمكن فرض عمل الكون في ضوء قوانين

أخرى؟ وإذا كان الإله هو الذي أنشأ القوانين الطبيعيَّة، فهل اختار الإله هذه القوانين من جملة بدائل وخيارات كثيرة كانت مطروحة أمامه، أم أنّه اضطّر إلى اعتماد هذه القوانين من دون غيرها؟

- **خامسًا: أطروحة هوكنغ وفيزياء الكمّ:**

يعتمد هوكنغ لإثبات نظريّته على فيزياء الكمّ، ودون أن ندخل في تفاصيل عرض المقدِّمات التي يعتمد عليها، إلاّ أنّ النتيجة التي تهمّنا هنا هي أنّه بناء لفيزياء الكمّ إنّ الكون ليس له ماضٍ معيّن ومحدّد، بل مجموعة غير متناهية التواريخ البديلة التي يصلح كلٌّ منها أ، يكون احتمالاً معيَّناً، ولكن ليس لنا طريق لتعيين أيّ من هذه الاحتمالات هو النهائي، وذلك لأننا لم نكن عنصرًا مراقِبًا لبداية نشوء الكون وتشكّله في الماضي.

فالفيزياء الكميّة تقوم على أساس فكرة أنّ المُراقِب يؤدّي دورًا في تغيير الأحداث ممّا يؤثِر على ماضيها، لأنّها ليس لها ماضٍ محدَّد بمعزل عن المراقِب. ولتقديم الفكرة بوساطة مثال بسيط، لو فرضنا أنّ شخصا ما سيسافر من لبنان إلى الكاظميّة قاصدًا زيارة مرقد الإمامين الكاظم والجواد عليهما السّلام، ولكن نجهل هل نزل في مطار النجف الأشرف وزار أمير المؤمنين ثم قصد الكاظمين عليه السّلام، أم أنه نزل في مطار بغداد، فإننا إذا أردنا أن نبحث عن ماضي حركته، وراقبنا لنعرف أي الطريقين سلك، فإنّه قد يكون سيسلك طريق النجف الأشرف، ولكنه لأنّه عرف مراقبتنا له، فغير وجهته وقصد مطار بغداد، ولذلك سيبقى الماضي مجهولاً لنا إن أردنا مراقبته.

فالماضي ليس عبارة عن سلسلة من الوقائع الحاصلة سواء علمنا بها أم لا، كـما هو في الفيزيـاء النيوتنية، بل الماضي الذي لم تحصل مراقبته هو أمر غير معيّن ولا محدّد، وإنما هو مجموعة من الاحتمالات والإمكانيات، وإن كان لاحتمال نسبة أكبر من غيره.

ومن الأمور التي شـغلت تفكير هوكنغ، هـي البداية الزمنية للكون، فإنَّ المؤمنين بالله يحتاجون إلى هذه النظرية التي تفسِّر الحدوث على أساس أنّ الله أوجد الأشـياء بعد أن لم تكن موجودة، ولكن بإمكاننا أن نتخلّص من هذه العقدة، أي عقدة «اللحظة الزمانية التي نشأ فيها الكون»، ونفسرها بطريقـة لا تحتـاج إلى الخالق والصانع، وذلك بأنّ نقـول بأنّ الزمان ليس بعدًا مسـتقلاً عن المكان، بل هو بعد رابـع بالإضافة إلى الطول والعرض والعمق، وحينها ننفي البداية الزمنية للكون، ولا معنى للسـؤال عن البداية الزمنيـة للكون، وبنفيها ننفـي الموجِد لها، يقول هوكنـغ: «إن إدراكنا أن الزمن كان يسلك سلوك المكان يقدِّم لنا بديلاً جديدًا؛ فهو يُزيل الاعتراض القديم بأن الكون له بداية، ولكنه يعني أيضًا أن بداية الكون كانت محكومة بقوانين العلم، ولا يحتاج لأن يبدأه إله ما».

وبذلك نعود إلى النقطة التي وجهنا لها النقض مرارًا، وهي أنّه من وجهة نظر هوكنغ إنّ قوانين العلم تحلّ محل الإله الخالق.

● **سادسًا: الكون له مصمِّم ذكيّ ولم يوجد نتيجة ضربة حظ:**

لقد غفل هوكنغ، عن أنّه حتى لو جعل الزمان متشابكًا مع المكان فيكون بعدًا رابعًا، إلّا أنّ السؤال الأساس الذي يبقى مطروحًا هو من خلق المادة

الأولى الأصليّة التي تكوّن منها الكون وهي ليست أزليّة، بل مسبوقة بالعدم، وإن لم يكن العدم الزمانيّ، فليس كل أشكال العدم هي العدم الزمانيّ فقط، لنسأل عن البداية الزمانيّة للكون، بل هناك العدم الذاتيّ، أي أنّه قبل الزمان كانت الأشياء في ذاته معدومة، فمن الذي أوجد ما تشكّل منه الزمان والمكان؟!! هو الله, تعالى.

وثانيًا: لا شكّ في أنّ الكون يتحرّك في ضوء قوانين الفيزياء، ولكن من أوجد هذه القوانين العلميّة، أي من الذي جعل الكون يشتغل في ضوء هذه القوانين العلميّة الخاصة؟!! هو الله، تعالى.

وثالثًا: من الذي أوجد ظاهرة الوعي والحياة من المادة الأولى، والتي هيَّأت أن يُصمّم الكون بطريقة منظّمة توفّر للإنسان كلّ ما من شأنه أن يجعله قادرًا على العيش في وسط هذا العالم الفسيح؟!! إنّ الله تعالى.

إنه ستيفن هوكنغ لا يغفل عن وجود التصميم العجيب في الكون، وهو نفسه يطرح بعض الأمثلة العلميّة على ذلك، فقد عرض في بعض فصول كتابه بكلّ دقة النظام الشمسي الأرضي الذي سمح بنشوء الحياة على الأرض، ولكنه قدَّم تفسيراً بديلاً عن الإله المُصمِّم للكون، إمّا قائم على الحظّ عندما يعبرّ نحن «محظوظون».

يقول هوكنغ: «حوالي نصف عدد الأنظمة النجمية في الكون مُكوَّنة من نجمين أو أكثر، ولو كانت الأرض تدور حول شمسين اثنتين بدلاً من واحدة، فإن ذلك يستلزم أن تكون الأرض معرَّضة لحرارة عالية جدًّا في فترات، وحرارة منخفضة جدًّا في فترات أخرى، وكلا الأمرين لا يتواءم مع نشوء الحياة على الأرض ... إذن فنحن «محظوظون» بوجود شمس

واحدة فقط في نظامنا الشمسي».

وإمّـا قائم على خرافة «تعـدّد الأكوان» حيث يقـول: إن وجود البلايين من الأنظمة الشمسـيّة في الكون، جعل من السـهل أن نفسر كون إحداها «نظامنـا الشـمسي» مُتوافقاً في تركيبتـه مع شروط نشـوء الحياة، وكذلك فـإن وجود البلايين من الأكـوان التي لكل منها قوانينهـا العلمية الخاصة يسهل علينا أنْ نستوعب وجود كَوْن واحد على الأقل منها له قوانين علمية وثوابـت رياضية مُتوافقة بالدقة مع شروط نشـوء الحيـاة في ذلك الكون، دون الحاجة إلى مُصمِّم وخالق خاص لذلك».

ما عشـت أراك الدهر عجبًا على هذا التفسـير القائم على أساس فرضيَّة تؤول إلى المصادفةالمصادفة والحظ أيضًا، وليس لها أي دليل علميّ على إثباتهـا، وعلى فرض إثباتهـا تتعقّد عملية الإجابة عليـه أكثر، لأنّها تكون شاهدًا مؤيِّدًا على مدى عظمة الخالق تعالى.

وعلى كلّ حال، سـنطرح في المبحثين اللاحقين ما يؤدي إلى بيان مدى سـخافة نظريَّات دوكنز وهوكنغ وأمثالهما، فضـلاً عمّا تبين في المباحث السابقة.

المبحث الثالث:
من صمَّم المصمّم العظيم؟ أو من خلق الله؟

● **أوّلًا: إذا كان ينبغي أن يكون لكلّ شيء سببٌ، إذًا، ينبغي أن يكون للإله سبب:**

ذكرنا سابقًا أن دوكنز عقد مبحثًا خاصًّا ليناقش فيه أنّه إذا كان هناك إله ومصمّم ذكيّ فإنّه يكون على مستوى عالٍ من التعقيد، وهذا يستدعي أن نجد تفسيرًا للسؤال التالي: من صمَّم هذا المصمّم العظيم؟ وبما أنّ المصمّم هو أكثر تعقيدًا من التصميم نفسه، فإنّ الإيمان بوجود الله يعني الإيمان بوجود ما هو أكثر تعقيدًا من التصميم نفسه، وهذا يستدعي تفسيرًا، وحجّة المتديّنين تعتمد على فكرة المتراجعة اللانهائيّة، فكلّما سألتهم عن ذلك استحضروا استحالة التسلسل، وهو تراجع زمنيّ لا يصلح أن يكون تفسيرًا، ومع ذلك يعيش دوكنز حالة التحيّر حول كيفيّة وجود البشريّة في هذا الكون في نقطة صالحة للحياة.

يفترض المنطق العلميّ والاتجاه التجريبيّ أنّ علاقات التأثير والتأثّر بين الأشياء والظّواهر في عالم الطّبيعة إنّما نشأت في ذهن الإنسان نتيجة الأنس الذهني والعادة، وليس كما يدّعيه المنطق العقلي بأنّ التأثير والتأثّر بين الأشياء هو نتيجة رابطة ضروريّة وذاتيّة بين الأشياء، بل هي مجرد علاقة اتفاقية، فعندما يشاهد الإنسان بشكر متكرِّر الإحراق يقع بعد وجود

النّـار، يطلق على هذا التعاقب المسـتمر بين النّار والإحراق اسـم العليّة والسّـببيّة، فمشـاهدة وجود النّـار وحضور صورتها في الذّهن تسـتدعي تصور الإحراق دون أن يكـون هناك علاقة لزوميّة بينهما في الخارج على نحو يسـتحيل انفكاكهما، فحال العلاقة بين النّار والإحراق كحال العلاقة بين صديقين متلازمين، فلو شـاهد الإنسان مثلاً عليًّا وصديقه محمدًا معًا على نحوٍ متكرر، سـينتقل ذهنه عند رؤية عـليٍّ إلى تصوّر صديقه محمد دون أن يكـون بـين عـلي ومحمد رابطـة ضروريّة ذاتيّة بـل مجرد اقتران متكرّر.

وإذا كان الأمـر كذلـك، فلا يمكننا الاسـتدلال من وجـود العالَم على وجود الخالِق والصّانع، لأنّه لا علاقة لزوميّة بين الحادثة والسّبب، بل هو مجـرد اقتران وتعاقب، فلا مانع من وجود هذا العالم عن طريق المصادفة والاتفاق دون أن يكون وراءه صانع ومصمِّم.

وعلى فرض صحة قانـون العليّة، فإذا كان لكلّ موجود علّة فحينها يأتي السّـؤال: مـا هي علّـة اللّه؟ وبما أنّـه «لا علّة للـه» كما يدّعي المؤمنـون، فإمّا أن ننكـر قانون العليّة رأسًـا، وإمّـا أن نعتقد بوجود الاستثناء فيه.

وعـلى الفرض الأول: أيّ إنكار قانون العليّـة، لا يكون هناك دليل على وجـود اللّه، لأنّ انتقال الذهن من العلم بوجود الحادث والممكن والنّظام و... إلى العلـم بوجود المُحدِث والواجب والمُنظِّم إنّما يتمّ مع التسـليم بقانون العلّية والتلازم والسّببيّة.

وعلى الفرض الثّاني: يقول الفلاسـفة والمناطقة بـأنّ القواعد العقليَّة لا

تقبل الاستثناء والتخصيص[1] بخلاف القواعد القانونية والشرّعيّة، وحينها لا يصحّ الاعتقاد بأنّ اللّه يخرج عن قانون العليّة استثناءً.

فلا يبقى إلاّ أن نؤمن بقانون العليّة من دون استثناءٍ، وحينها نسأل: ما هي علّة اللّه؟ ومن خلقه؟

يقول الفيلسوف الملحد برتراند رسل: «إذا كان ينبغي أن يكون لكلّ شيء سبب، إذًا، ينبغي أن يكون للإله سبب، وإذا كان من الممكن أن يكون هناك إله من دون علّة أو سبب، يمكن إذًا أن يكون العالم من دون علّة أو سبب، مثل الإله تمامًا»[2].

● ثانيًا: قانون العليّة ثابت بالفطرة والعقل:

أ. الشعور الفطريّ بقانون السببيّة العام

يهتدي الحيوان بغريزته التي أودعها اللّه, تعالى, فيه إلى وجود ارتباط بين الأشياء، فيهرب من النّار لشعوره بأنّها محرقة، ويلتفت إلى الصّوت إذا صدر من مكان ما، لشعوره بوجود ذي الصّوت في ذلك المكان... إلخ، فذهن

1 - لأنّها لو قبلت الاستثناء لبطلت، لأنّ الموضوع في القضيّة العقليَّة هو العلّة التامة لمحمول القضيّة، يقول صدر المتألهين: « التخصيص في الأدلّة العقليَّة اعتراف ببطلانها، حيث يتخلّف المدلول عنها»، الحكمة المتعالية في الأسفار العقليَّة الأربعة، ج2، ص147. وأينما وجدت العلّة وجود المعلول، فقولنا مثلاً: اجتماع النّقيضين محال، فإنّ الموضوع: اجتماع النّقيضين هو تمام العلة للحكم بالاستحالة والامتناع، فلو أمكن استثناء فرد واحد من عموم القاعدة العقليَّة للزم كذبها، وذلك لأنّ السّالبة الجزئية نقيض الموجبة الكليّة، فإذا صدقت بعض المعلول لا علة له، كذبت كلّ معلول له علّة...

2 - رسل، لماذا لست مسيحيًا؟ ص12.

الحيوان يعمل في ضوء قانون السّببيّة، وإن لم يُدرِك ذلك بصورة واعية، وهكذا هــو حال الطّفل أيضًا، وهذا دليل واضح على غريزيّة وفطريّة الشّــعور بقانون السّببيّة العامّ، وإن لم يكن هذا الشّعور ملتفَتًا إليه على نحو تفصيليّ واعٍ.

فالإنسان يمارس في حياته الاعتياديّة واليوميّة قانون السّببيّة وإن لم يشعر بذلك، فإذا سمع طرقة الباب يذهب إلى فتح الباب لعلمه بوجود الطّارق، فالعلم بالطّرقة يســتلزم انتقال الذّهن إلى العلم بوجود الطّارق، وكذلك إذا رأى الدّخان فإنّه يعلم بوجود النّار، وهكذا يســتطيع عقل الإنسان أن يربط بين شــيئين على نحو التلازم والضّرورة، وإلّا لما بحث المُلحد نفســه عن علّل الأشــياء، لأنّه ما المانع حينها من أن توجد ظاهرة الزّلزال أو الرّعد أو الــبرق بلا علّة؟!! وما المشــكلة في أنّ يأخذ المريــض المُصاب بداءِ (أ) الدّواء المختصّ بالمرض (ب) إذا نفينا العلاقة الذاتيّة اللزوميّة؟!! وكذلك لو لم نؤمــن بقانون العليّة والسّــببيّة بمعنى وجود علاقــة لزوميّة ضروريّة ذاتيّة بين شــيئين لما أمكن أن يســتدلّ الإنســان عــلى أيّ شيء، بل أمكن الاســتدلال بــأيّ شيء عــلى أيّ شيء، لأنّ طبيعة الاســتدلال قائمة على أســاس أنّ مقدّمات معيّنة تنتج نتيجة مناسبة لها ولا تنتج أيّ نتيجة، فلولا قانون السّــببيّة ما المشــكلة في أن نقول: الرّمان أحمر، والتفاح فاكهة، إذًا البحر مالح؟!! بينما يجد الإنسان فرقًا واضحًا بين هذا القياس وبين قولنا: الماء سائل، والسّائل يتمدّد بالتسخين، فالماء يتمدّد بالتسخين.

إنّ الإيمان بقانون السّببيّة الذي يقول إنّ لكلّ حادثة وواقعة سببًا خاصًّا، مبدأ عقليٌّ قبل التجربة يؤمن به الإنســان اضطــرارًا، وهو مبدأ فطري غني عن البرهنة والاستدلال.

ب. الربط بين الظواهر الطبيعيَّة ومعرفة خصوصيّة المؤثِّر:

وبهذا يتبيّن أيضًا، أنّ ذهن الإنسان لا ينتقل من مجرّد عمليّة الرّبط بين شيئين، بل أيضًا إلى الرّبط بين خصوصيّة الشّيء المُتأثِّر وطبيعة السّبب المؤثِّر، بمعنى أنّ طبيعة الشّيء المعلول وخصائصه وصفاته ومميّزاته، تكشف عن طبيعة السّبب الفاعل والمؤثّر في وجود ذلك الشّيء. فإذا شاهدنا لوحة فنّيّة جميلة، نعرف أنّ الرّسام ماهر ومحترف، وإذا نظرنا إلى شكلٍ هندسيّ معماريّ منظّم نعرف أنّ الذي قام بهذا العمل مُهندِس حاذق... إلخ، فخصوصيّات الأثر تدلّ على خصوصيّات المؤثِّر.

وخلاصة النّقطتين المتقدِّمتين: أنّ قانون العلّيّة ثابت بحكم الفطرة والعقل، ولولا ثبوته لانهار المذهب التجريبيّ. وبالتالي يمكن الاستدلال على وجود اللّه تعالى.

ويمارس الإنسان الاستدلال على وجود اللّه تعالى بقانون السّببيّة على نحوٍ فطري، فينتقل ذهنه من العلم بخصائص العالَم المحيط به والظّواهر الطبيعيَّة التي يشاهدها إلى العلم بوجود العلّة والخالق والصّانع... والقصّة المشهورة للأعرابيّ الذي سُئِل عن الدّليل على وجود الصّانع، اعتمدت على عنصر الإيمان القبليّ بقانون السّببيّة العامّ، إذ قال: البعرة تدلّ على البعير، وآثار الأقدام تدلّ على المسير، أفسماءٌ ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، لا تدلّ على وجود اللطيف الخبير؟!

وهذا ما نلمسه في منهج أهل البيت، عليهم السّلام، فعندما سُئل أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام عن إثبات الصّانع؟

أجاب: «البعرة تدلّ على البعير، والرّوثة تدلّ على الحمير، وآثار الأقدام

تدلّ على المسـير، فهيكل علويّ بهذه اللطافة، ومركز سفليّ بهذه الكثافة، كيف لا يدلّان على اللطيف الخبير؟!»[1].

● **ثالثًا: لا جواب صحيحًا على سؤال خاطئ:**

هـل لكلّ سـؤال جـواب؟ في الواقع، لا جـواب صحيحًا لسـؤال غير صحيح. وسؤال: من خلق اللّه؟ خاطئ وينطوي على مغالطة منطقيّة، لأن هذا السّـؤال يفـترض أنّ اللّه مخلوقٌ، وكلمة «مخلـوق» - إذا أردنا التفنّن اللغويّ - على وزن مفعول، وهو اسم يدلّ على من وقع عليه فعل الفاعل، واللّه ليس مخلوقًا، فلا يُسأل عن فاعله وخالقه، وإلّا لو كان ما أطلق عليه اسـم «اللّـه» مخلوقًا، لما كان هو اللّه حقيقة، كـما هي الحال في كائنات كثيرة أطلق عليها الوثنيّون اسـم الإله، كالشمس والقمر والصّنم والبقرة... فكلّ ما افترض أنّه مخلوق فهو ليس اللّه، لذا، فإنّ السّؤال: من خلق اللّه؟ هو أشبه بسـؤال: من مَشْمَشَ التفّاح؟ أيّ من جعل التفاح مشمشًا، مع أنّ التفاح هو التفاح وليس المشمش!!

إنّ هـؤلاء الملاحـدة والزنادقـة قد حرّفـوا الكلم عن مواضعـه وقانون السّـببيّة عن مدلوله ومعناه، وذلك بتبديل موضوع القضيّة بموضوع آخر، فقانون السّـببيّة يقول: كلّ معلول له علّة، أو كلّ مسبَّب له سبب، في حين أنّهـم وضعوا بدل مفردة «معلول» كلمـة أخرى هي: «شيء»، فقالوا: «كلّ شيء لـه علّـة»، أو كلّ موجود له علّة، إلّا أنّ العقل لا يرى أنّ كلّ شيء أو

1 - المجلسي، بحار الأنوار، ج3، ص55.

كلّ موجود يجب أن يكون له علّة، بل يرى أنّ كلّ معلـــول لـــــه علّة أو كلّ ممكــن له علّــة أو كلّ حادث له علّة، لأنّ الممكــن أو المعلول أو الحــادث هو الشّيء الذي لا يملــك الوجود من ذاته بل يحتاج في وجوده إلى مؤثّر خارجيّ يعطيه الوجود ويُخرِجه من دائرة الإمكان وتساوي النّسبة إلى الواقع.

ولــو ســألنا العقل: هل يمكن أن نفترض شــيئًا هو علّــة وليس معلولاً؟ لأجــاب بأنّه يجب أن يكــون هناك شيء هو علّة وليــس بمعلول. وذلك، لاســتحالة التسلســل في الأســباب والمســبّبات لا إلى نهاية، إذ لا بدّ من الوقوف عند مســبِّب ليس وراءه ســبب، لأنّه لو لم يكن هناك موجود غنيٌّ لا يحتــاج إلى موجود آخر، لما وُجِد شيءٌ في الكون، لأنّنا ســنفترض أنّ كلّ سلســلة الوجود تكون حادثة ومحتاجة وممكنة، ولا تتمكّن من إخراج نفســها بنفســها من دائرة اللاوجــود إلى الوجود، لكنّه قــد وُجِد شيء في الكون، إذًا يوجد موجود غنيّ أفاض على سلسلة المعلولات والممكنات الوجود فوُجِدت.

والعجــب، كيف يرتضي الملحد أن تكون المــادّة التي تتميّز بخصائص اللاوعــي والــلاذكاء والتغــيّر والتحــوّل والنّقــص والمحدوديّــة... أزليّة ومســتغنية عن الموجِد والسّبب؟!! في حين أنّه يريد أن يكون هناك سبب وعلّــة للإله - المفروض أنّــه يتميّز بالغنى والكمال المطلــق واللاتناهي- أســبق منه في الوجود؟!! إنّ الاعتقاد بأنّ الغني المطلق قديم وأزليّ وغير محتــاج إلى العلّة أهون خطبًا عند العقل من الاعتقاد بأنّ النّاقص الحادث المتغيّر غير محتاج إلى العلّة والسّبب.

المبحث الرابع:
الدليل العلميّ على وجود الله، تعالى

ذكرنا سابقًا أنّه يمكن اعتماد الدليل العلميّ على وجود الله,تعالى، وفي هذا المبحث سنعرض الدليل العلميّ الذي ذكره الشهيد السيد محمد باقر الصدر على وجود الله, تعالى.

● أوّلًا: تعريف الدليل العلميّ:

هو كلّ دليل يعتمد على الحسّ والتجربة ويتّبع منهج الدليل الاستقرائيّ القائم على حساب الاحتمالات. وسنشرح أوّلاً خطوات هذا المنهج الذي نعتمد عليه في حياتنا اليوميّة، ويستخدمه العلماء في البحوث التجريبيَّة، ثمّ ننظر هل يُمكننا تطبيق خطوات هذا الدليل على الظواهر الكونيّة، لنثبت وجود الصانع الحكيم؟ أم أنّ اتِّباعُ خطوات الدليل العلميّ تُوصلنا إلى أنّ الكون وُجد مصادفة ولا من شيء؟

يُمكن تلخيص هذا المنهج بخمس خطوات، هي:

أوّلاً: نُواجه في مجال الحسّ والتجربة ظواهر عديدة.

ثانياً: ننتقل بعد ملاحظتها وتجميعها إلى وضع فرضيّة صالحة لتفسير تلك الظواهر وتبريرها جميعاً، بمعنى أنّها إذا كانت ثابتة في الواقع فهي تتناسب مع وجود جميع تلك الظواهر التي هي موجودة فعلاً.

ثالثاً: نُلاحظ أنّ هذه الفرضيّة إذا لم تكن صحيحة في الواقع، ففُرصة

وجود تلـك الظواهر كلّها مجتمعة ضئيلة جدًّا، كواحد في المائة أو واحد في الألف وهكذا.

رابعـاً: نسـتخلص من ذلـك، أنّ الفرضيّـة صادقة، ويكـون دليلنا على صدقها وجود تلك الظواهر التي أحسسنا بوجودها في الخطوة الأولى.

خامسـاً: إنّ درجة إثبات تلك الظواهر للفرضيّـة المطروحة في الخطوة الثانية، تتناسـب عكسيّاً مع نسـبة احتمال وجود تلك الظواهر جميعاً إلى احتمال عدمها على افتراض كذب الفرضيّة، فكلّما كانت هذه النسـبة أقلّ كانـت درجة الإثبات أكبر، حتّى تبلغ في حالات اعتياديّة كثيرة، إلى درجة اليقين الكامل بصحّة الفرضيّة.

● ثانيًا: تطبيق خطوات الدليل العلميّ على الظواهر الكونيّة:

1. الخطـوة الأولى: التوافق المطّرد بين الظواهر الطبيعيَّة وحاجات الإنسان:

نُلاحـظ توافقاً مطّرداً بين عدد هائل مـن الظواهر المنتظمة، وبين حاجة الإنسان كائنًا حيّاً وتيسير الحياة له، على نحوٍ نجد أنّ أيّ بديل لظاهرة من تلك الظواهر يعني انطفاء حياة الإنسان على الأرض أو شلّها.

فيما يلي نذكر عدداً من تلك الظواهر كأمثلة:

تتلقّـى الأرض من الشـمس كمّيةً من الحـرارة تمدّها بالـدفء الكافي لنشـوء الحياة وإشـباع حاجة الكائن الحيّ إلى الحـرارة، لا أكثر ولا أقلّ. وقـد لُوحظ علميّاً أنّ المسـافة التي تفصل بين الأرض والشـمس، تتوافق توافقـاً كاملاً مع كمّية الحرارة المطلوبة من أجل الحياة على هذه الأرض،

فلـو كانت ضِعْفَ ما عليهـا الآن، لَمّا وُجدت حرارة بالشـكل الذي يُتيح الحيـاة، ولو كانت نصف مـا عليها الآن، لتضاعفت الحـرارة إلى الدرجة التي لا تُطيقها حياة.

ونُلاحـظ أنّ قشرة الأرض والمحيطات تحتجز - على شـكل مركّبات - الجزء الأعظم من الأوكسـجين، حتّى إنّه يكوّن ثمانية من عشرة من جميع الميـاه في العالم، وعلى الرغم من ذلك ومن شـدّة تجاوب الأوكسـجين مـن الناحية الكيمياويّـة للاندماج على هذا النحو، فقـد ظلّ جزءٌ محدود منه طليقاً يُسـهم في تكوين الهواء، وهذا الجـزء يُحقّق شرطاً ضرورياً من شروط الحياة، لأنّ الكائنات الحيّة، من إنسـان وحيـوان بحاجة ضروريّة إلى أوكسـجين لكي تتنفّس، ولو قُدّر له أن يُحتجز كلّه ضمن مركّبات لَما أمكن للحياة أن تُوجد.

وقد لوحظ أنّ نسبة ما هو طليق من هذا العنصر، تتطابق تماماً مع حاجة الإنسان وتيسير حياته العمليّة، فالهواء يشتمل على 21% من الأوكسجين، ولو كان يشتمل على نسبة كبيرة لتعرّضت البيئة إلى حرائق شاملة باستمرار، ولو كان يشتمل على نسبة صغيرة لتعذّرت الحياة أو أصبحت صعبة، ولَما توفّرت النار بالدرجة الكافية لتيسير مهمّاتها.

ونلاحظ ظاهرةً طبيعيّةً تتكرّر باسـتمرار ملايـين المرّات على مرّ الزمن، تُنتج الحفاظ على قدر معيّن من الأوكسـجين باستمرار، وهي أنّ الإنسان والحيوان عموماً، حينما يتنفّس الهواء ويستنشـق الأوكسـجين يتلقّاه الدم ويُوزّع في جميع أرجاء الجسم، ويُباشر هذا الأوكسجين في حرق الطعام، وبهـذا يتولّـد ثاني أوكسـيد الكربون الذي يتسـلّل إلى الرئتين ثـمّ يلفظه

الإنسان، وبهذا يُنتج الإنسان وغيره من الحيوانات هذا الغاز باستمرار، وهذا الغاز بنفسه شرط ضروريّ لحياة كلّ نبات، والنبات بدوره حين يستمدّ ثاني أوكسيد الكربون يفصل الأوكسجين منه ويلفظه ليعود نقيّاً صالحاً للاستنشاق من جديد.

وبهذا التبادل بين الحيوان والنبات أمكن الاحتفاظ بكمّية من الأوكسجين، ولولا ذلك لتعذّر وجود هذا العنصر وتعذّرت الحياة على الإنسان نهائيّاً. إنّ هذا التبادل نتيجة آلاف من الظواهر الطبيعيّة التي تجمّعت حتّى أنتجت هذه الظاهرة التي تتوافق بصورة كاملة مع متطلّبات الحياة.

ونلاحظ أنّ النتروجين بوصفه غازاً ثقيلاً أقرب إلى الجمود، يقوم عند انضمامه إلى الأوكسجين في الهواء بتخفيفه بالصورة المطلوبة للاستفادة منه.

ويلاحظ هنا أنّ كمّيّة الأوكسجين التي ظلّت طليقةً في الفضاء، وكمّيّة النتروجين التي ظلّت كذلك هما منسجمتان تماماً، بمعنى أنّ الكمّيّة الأولى هي التي يُمكن للكمّيّة الثانية أن تخفّفها، فلو زاد الأوكسجين أو قلّ النتروجين لَما تمّت عمليّة التخفيف المطلوبة.

ونلاحظ أنّ الهواء كمّيّة محدودة في الأرض، قد لا يزيد على جزء من مليون من كتلة الكرة الأرضيّة، وهذه الكمّيّة بالضبط تتوافق مع تيسير الحياة للإنسان على الأرض، فلو زادت نسبة الهواء على ذلك أو قلّت لتعذّرت الحياة أو تعسّرت، فإنّ زيادتها تعني ازدياد ضغط الهواء على الإنسان، الذي قد يصل إلى ما لا يُطاق، وقلّتها تعني فسح المجال للشُّهب التي تتراءى في كلّ يوم لإهلاك من على الأرض واختراقها بسهولة.

ونلاحظ أنّ قشرة الأرض التي كانت تمتصّ ثاني أوكسيد الكربون

والأوكسجين محدّدة على نحوٍ لا يُتيح لها أن تمتصّ كلّ هذا الغاز، ولو كانت أكثر سماكةً لامتصّته، ولهلك النبات والحيوان والإنسان.

ونُلاحظ أنّ القمر يبعُد عن الأرض مسافةً محدّدةً، وهي تتوافق تماماً مع تيسير الحياة العمليّة للإنسان على الأرض، ولو كان يبعُد عنّا مسافةً قصيرةً نسبيّاً، لتضاعف المدّ الذي يُحدثه وأصبح من القوّة على نحوٍ يُزيح الجبال من مواضعها... وغير ذلك

من الظواهر التي لا تُعدّ ولا تحصى، والمثبتة بالتجربة في العلوم الطبيعيَّة المختلفة.

2. الخطوة الثانية: فرضية وجود الصانع:

نجد أنّ هذا التوافق المستمرّ بين الظاهرة الطبيعيَّة ومهمّة ضمان الحياة وتيسيرها في ملايين الحالات، يُمكن أن يفسّر في جميع هذه المواقع بفرضيّة واحدة، وهي أن نفترض صانعاً حكيماً لهذا الكون، قد استهدف أن يوفّر في هذه الأرض عناصر الحياة ويُيسّر مهمّتها، وهذه الفرضيّة تستبطن كلّ هذه التوافقات.

3. الخطوة الثالثة: ماذا لو افترضنا عدم وجود الصانع؟

نتساءل: إذا لم تكن فرضيّة الصانع الحكيم ثابتةً في الواقع؟ فما هو مدى احتمال أن توجد كلّ تلك التوافقات بين الظواهر الطبيعيَّة ومهمّة تيسير الحياة، من دون أن يكون هناك هدفٌ مقصود؟ من الواضح أنّ احتمال ذلك يعني افتراض مجموعة هائلة من الصُّدَف، لأنّ افتراض المشابهة في

ألف صفة ضئيل بدرجة كبيرة في حساب الاحتمالات، فما ظنّك باحتمال أن تكـون هذه الأرض التي نعيش عليها بكلّ ما تضمّه، من صُنع مادّة غير هادفة ولكنّها تُشابه الفاعل الهادف الحكيم في ملايين ملايين الصفات؟

4. الخطوة الرابعة: نرجّح بدرجة لا يشـوبها الشـكّ أن تكون الفرضيّة التي طرحناها في الخطوة الثانية صحيحةً، أي إنّ هناك صانعاً حكيماً.

5. الخطوة الخامسـة: نربط بين هذا الترجيح وبين ضآلة الاحتمال التي قرّرناها في الخطوة الثالثة. ولمّا كان الاحتمال في الخطوة الثالثة يزداد ضآلةً كلّـما ازداد عـدد الصُّدف التي لا بدّ من افتراضها فيه - كما عرفنا سـابقاً-، فمـن الطبيعيّ أن يكون هذا الاحتمال ضئيـلاً بدرجةٍ لا تُماثلها احتمالات الخطوة الثالثة في الاسـتدلال على أيّ قانون علميّ، لأنّ عدد المصادفات التـي لابدّ من افتراضها في احتمال الخطـوة الثالثة هنا أكثر من عددها في أيّ احتمال مُناظر، وكلّ احتمال من هذا القبيل فمن الضروريّ أن يزول.

● **ثالثًا: بين التصميم الذكيّ والمصادفة العمياء:**

يقول الفيلسوف صدر المتألهين الشيرازي: «شهادة كلّ فطرة سليمة على أنّ فاعـل هذا الترتيـب العجيب والنظم المحكم، يسـتحيل أن تكون قوّة عديمة الشعور»[1].

1 صدر المتألهين الشيرازي، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج9، ص118.

أيّها الملحد، عندما تصدّق أنت أنّ قِرداً على الرغم من أنّه يتمتّعُ بالحياةِ والشعورِ والإدراكِ الحسّيّ، ودرجةٍ من الذكاء - بغضّ النظر عن نسبتها رياضيّاً - قادرٌ وبفعلِ عاملِ المصادفة، على تأليف كتابٍ واحد، ينقضُ فيه نظريَّات ستيفن هوكينغ وريتشارد دوكنز. حينَها فقط قد أصدّق أنا، أنّ الفراغَ العدميَّ، أو المادّةَ العمياء أو المصادفة الصمّاء، قد أوجَدَت كلَّ هذه الكائناتِ العجيبةِ بتصميمِها الذكيّ الذي أذهلَ عقول العلماء!

فهل هناك وراء هذه الكائنات - التي تثيرُ الدهشةَ بدقَّة تصميمِها، وتحيرُّ العقولَ بتناغمها الوجوديّ - مصمّمٌ ذكيّ أبدَعَها؟! أهي أخرَجَت نفسَها من فراغٍ عدميٍّ إلى الوجود بفعل المصادفة واللاشيئيّة؟!

في رحلة البحث منذ بَدء النظرِ في الوجود حتّى اليوم، ثمّة فرضيّتان لم يعثرِ العقلُ بعدُ على ثالثةٍ لهما: إمّا المصمّمُ الذكيّ وإمّا المصادفة العمياء، وفي الأعمّ الأغلب كان التصويت لمصلحة: نعم، الله موجود.

إنّ عالم الحيوان أو عالمِ النبات أو عالم الفلك، عندما يكتبون في مسألةٍ واحدة فقط، عن حيوانٍ فردٍ أو نبتةٍ واحدةٍ أو كوكب صغير، فإنّهم قد يكتبون آلاف الصفحاتِ التي تحتوي تفاصيلَ عجيبةً عن صُنعه ودقّة هندسته، وعن القوانينِ الداخليّةِ التي تحكُم وجودَه. ولا ريْب في أنّها تفوقُ آلافَ المرّات التصميم الذكيّ الموجودَ في الهاتف المحمول، والذي لا يُمكن أن تُصدِّقَ عندما تنظُرُ إليه، بأنه صناعةُ المصادفة والعدم. بل هو إنجازُ مصمّم ذكيٍّ ياباني أو أمريكيّ أو آخر...؟!!

هذه هي التجربةُ اليوميّةُ لكلّ واحد منّا في الحياة، مع الهاتف والتلفاز والسيّارة والحاسوب وديوان الشعر والمنزل الجميل و...، فلا نتصوّر

يومـاً أنّ واحدةً منها قـد خرَجَت إلينا من اللاشيء، ووضَعَت نفسَـها بين أيدينا. بينَما يريدُ الملحدُ أن نتصوّرَ مليارات الكائناتِ التي تفوقُها ذكاءً في التصميم، قد خرَجَت إلينا من اللاشيء والعدم؟!!

ما عشتَ أراكَ الدهرُ عَجَباً!

نعـم، إنّه جنـون الإلحاد. عندما يريد الملحدُ أن نصـدّقَ ما يتناقض مع أبسط قوانين العقل والتجربة، ونكذّبَ ما تشهدُ عقولُنا ببداهته!

إنّها خديعةُ الإلحاد التي تكمُن في تحويلِ اليقينِ البديهيّ بقضيّة أنّ «الله موجـود»، إلى مجرّدِ فرضيّةٍ محتملة, أو فرضيّةٍ قد تجمَّعَت القرائنُ والأدلّةُ على نفيها بوساطة رشقاتٍ من الشُّبهات البروباغانديّة والأسطوريّة.

هل يُعقل أن تكون مجموعةُ الأنظمةِ والقوانينِ التي تضبطُ إيقاعَ العناصرِ المختلفةِ في الكون، في شبكة مترابطة ومنسجمة، مصادفة؟!

هل يُعقل أنّ هذا الانسـجامُ الكونيّ الذي يسيرُ نحو هدفٍ مشترك، وهو أن يكون صالحاً لحياة الإنسان وعيشه فيه، مصادفة؟!

لو فرضنـا – أدب الحوار - أنّ المـادّةَ الفاقدةَ للحياةِ والشـعورِ والذكاء والإدراك، قـد تحوّلت عـبر مليارات السـنين ذاتيّاً إلى كائنـاتٍ حيّةٍ ذكيّةٍ مدركـة (على الرغم مـن أنّ فاقد الشيء لا يمكن أن يكـون مُعطيّاً له؟!)، يبقى السـؤال الذي لم يسـتطع أيّ ملحد أن يجيب عنه: من أوجد المادّة الأولى؟

ولـو فرضنـا – بأدب الحـوار أيضاً – أزليَّـة المادة، فمن أبـدَعَ القوانين (كقانون الحركة والجاذبيّة والتمدّد و...) التي ساعدت المادّة على التحوّل إلى ما نُعاينُه من كائنات؟!

الواقـع أنّ وجودَ النظـمِ والقوانينِ والتصميمِ الذكيّ، يطـرُدُ فكرةَ العبثيَّةِ والمصادفة خارج التاريخِ المعرفيّ للبشر. وذلك بتضاؤلِ نسـبةِ احتمالها رياضيّاً إلى درجةٍ تُقارب الصفر. ما يجعلُنا نسـتبعدُ على الأقل، فرضيّةَ أنَّ قوّةَ النّظم قد حصَلَت من الطبيعةِ ذاتها، من دون حاجةٍ إلى مؤثّر خارجيّ.

وقد يقتحِم علينا من يُنكرُ فكرةَ النظامِ في الكون، فما يُقال عنه إنَّه نظام، ما هـو إلاّ وهمٌ صاغَه الذهنُ البشريّ، وإلاّ كيف نفسّرُ وجودَ التسـوناميّ والفياضانات والزلازلِ والبراكين... إلخ، فهل هذه فوضى أم نظام؟

لعلّه غَفَلَ عن أنَّ ما ذكرَه يؤكّدُ فكرةَ النظام ولا يُلغيها. فهو مع ماذا يقارنُ هذه الظواهر الطبيعيَّة؟ ولماذا لم يختر إلاّ بعض عناصر الطبيعة؟

إنّـه يقارنُها مع فكرة النظام كي يراها فوضى، وعليه فإنّ الشيء قد «يُظهرُ حسـنَه الضدُّ». كما أنّ فكـرةَ وجودِ أنظمةٍ وقوانينَ تحكُـم حركةَ الظواهرِ الكونيّةِ بصورةٍ متَّسِـقةٍ ومُنسـجمة، هي موضعُ اتّفـاقِ العلماء. وإلاّ لولا هذه القوانين، لا معنى للحديثِ عن أيّ علمٍ من العلوم الطبيعيَّة كالفيزياء والكيميـاء والبيولوجيـا والفلك والطـبّ وغيرِها، لأنّها علـومٌ مبنيّةٌ على أساسِ الإقرارِ بوجودِ قوانينَ كونيّةٍ عامّة، كقانون الجاذبيّة، وقانون الحركة، وقانون الاطّراد... إلخ.

إلى ذلـك، فإنّ النظام لا يُعاينه الخبيرُ المتخصِّصُ فحسـب. بل إنّ كلَّ إنسان يُلاحظُ هذه النظمَ في الكون، بتكـــرُّرِ مشاهـــداته الحسّيّة. ويحدِّدُ أسـاليبَ حياته العَمَليَّةِ في التجارةِ والزراعةِ والصيدِ والسفر و...، في ضوءِ الحركةِ المنتظمةِ للظواهر الكونيّة. كحركةِ الشمسِ من الشرق إلى الغرب، وتعاقـب الليل والنهار، والفصول الأربعـة، ومواقع النجوم، إلى

عشراتِ آلاف الظواهرِ التي تعملُ على نحوٍ منتظم، فتُسـهِّلُ علينا مسـيرةَ الحياة.

لقـد صدق فرنسـيس بيكـون - وهو الأبُ المؤسّـس للمنهـج العلميّ الحديث - عندما قال: «هؤلاء الذين يُنكِرون الله يحطّمون كرامةَ الإنسان. لأنَّ الإنسانَ من حيثُ الجسم، شبيه بالدوابّ. وإذا لم يشبه الله من حيث الروح، أضحى مخلوقاً وضيعاً وحقيراً»[1].

1 - جهانكيري، محسن، فرنسيس بيكون آراؤه وآثاره، ص211.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. ابـن فارس، أحمد بن فارس بن زكريـا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، 1404هـ.

2. ابن سينا، الشفاء- المنطق، البرهان، تصدير ومراجعة إبراهيم مدكور، تحقيـق أبو العلا عفيفـي، نشر وزارة التربية والتعليـم الإدارة العامة لثقافة بمناسبة الذكرى الألفية للشيخ الرئيس، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1375هـ 1956-م.

3. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسـان العـرب، ج3، نشر أدب الحوزة، قم- إيران، 1405هـ.

4. الآصفـي، محمد مهدي، دور الدين في حياة الإنسـان، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1975م.

5. بدوي، عبد الرحمن، تاريخ الإلحاد في الإسـلام، المؤسسـة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1980م.

6. بوليتـزر، جـورج، وجـي بيـس وموريس كافـين، أصول الفلسـفة الماركسـيَّة، ترجمة شـعبان بركات، منشـورات المكتبـة العصرية صيدا- بيروت.

7. ج. بـنروبي، مصادر وتيارات الفلسـفة المعاصرة في فرنسـا، ترجمة عبد الرحمن بدوي، المؤسسـة العربية للدراسـات والنشر، بيروت، ط2، 1980م.

8. جهانكيري، محسن، فرنسيس بيكون آراؤه وآثاره، تعريب عبد الرحمن العلوي، دار الهادي، بيروت، ط1، 1426هـ 2005-م.

9. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح- تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407هـ 1987-م.

10. حنفي، حسن، دراسات فلسفيّة، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة.

11. دراز، عبد الله، الدين- بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم، بيروت.

12. رسل، برتراند، لماذا لست مسيحيًّا، ترجمة عبد الكريم ناصيف، دار التكوين للتأليف والترجمة ، ط1، 2015م.

13. رسل، برتراند، مشكلات الفلسفة، ترجمة سمير عبده، دار التكوين للتأليف والترجمة، ط1، 2016م.

14. الزمخشري، جار الله، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط1، 1412هـ.

15. ستيفن هوكينغ، وليونارد مولدينوو، التصميم العظيم، إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى، ترجمة أيمن أحمد عياد، دار التنوير، بيروت، ط1، 2013م.

16. الشريف الرضي، نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

17. الشهرستاني، عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

18. الشهرستانيّ، عبد الكريم، نهاية الأقدام في علم الكلام، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1425هـ.

19. الشيرازي، محمد (المعروف بصدر المتألهين)، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1981م.

20. الصدر، الأسس المنطقيَّة للاستقراء، دار التعارف، بيروت، ط5، 1986م.

21. الصدر، محمد باقر، فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط12، 1402هـ 1982-م.

22. الصدر، محمد باقر، السنن القرآنية للمجتمع والتاريخ، دار المرتضى، بيروت، 1413هـ 1993-م.

23. الصدر، محمد باقر، المرسل الرسول الرسالة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1412هـ 1992-م.

24. الصدر، محمد باقر، اقتصادنا، دار التعارف، بيروت، 1411هـ 1991-م.

25. الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، تصحيح علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلميّة في قم المقدسة، ط2.

26. الصدوق، محمد بن علي، علل الشرائع، منشورات المكتبة الحيدريّة، النجف، 1966م.

27. الصّدوق، محمد بن علي، التوحيد، تحقيق علي أكبر الغفاري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1427هـ 2006-م.

28. الصّدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار، تعليق علي أكبر الغفاري، تقديم حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1410هـ 1990-م.

29. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، دار الكتب الإسلامية، تهران، 1372هـ.ش.

30. الطباطبائي، محمد حسين، تقديم وتعليق مرتضى مطهري، أصول الفلسفة والمنهج الواقعي، ترجمة عمار أبو رغيف، مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، بيروت، ط1، 1421هـ.

31. الطباطبائي، محمد حسين، نهاية الحكمة، تصحيح وتعليق الشيخ عباس علي الزارعي السبزواري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط14، 1417هـ.

32. طلعت، هيثم، العودة إلى الإيمان، مركز براهين للأبحاث والدراسات، ط2، 2016م.

33. عجمي، سامر توفيق، الوضعية دارسة مفهومها ومنزلتها في علم المعرفة المعاصر، المنضورة ضمن كتاب: جوهر الغرب، مجموعة باحثين، المركز الإسلاميّ للدراسات الإستراتيجيّة، النجف الأشرف، ط1، 1443هـ 2022-م.

34. العجيري، عبد الله بن صالح، ميليشيا الإلحاد- مدخل لفهم الإلحاد الجديد، تكوين للدراسات والأبحاث، ط2، 1435هـ 2014-م.

35. العيسوي، دراسات في تفسير السلوك الإنسانيّ، دار راتب الجامعية، بيروت، 1419هـ.

36. فلو أنتوني، مع روي إبراهام فارجيس، هناك إله- كيف غيّر أشرس ملاحدة العالم أفكاره؟!، ترجمة جنات جمال، مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالج النوازل العقدية، ط1، 2017م.

37. فويرباخ، لودفيج، جوهر الدين، ترجمة وتقديم أحمد عبد الحليم عطية، دار المعارف الحكمية، بيروت، ط1، 1438هـ 2017-م.

38. كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، (لا ط) (لا ت).

39. كونت، أوجست، دروس في الفلسفة الوضعية، درس 28، نشره ليتريه سنة 1864م.

40. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، صححه وعلّق عليه علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط1، 1388هـ.

41. اللواتي، حسن بن أحمد، المُصمِّم الأعظم قراءة نقدية في كتاب التصميم العظيم لستيفن هوكنج، العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ط1، 2017م1439-هـ.

42. ماشيري، بيار، كونت الفلسفة والعلوم، ترجمة سامي أدهم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1414هـ 1994-م.

43. ماكغراث، ليستر إدغار، وجوانا كوليكات ماكغراث، وهم دوكينز- الأصوليّة الملحدة وإنكار الإله، ترجمة محمد عودة، العتبة العباسيّة المقدّسة، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، ط1، 2017من- 1438هـ.

44. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة

الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط2، 1403هـ 1983-م.

45. مطهـري، مرتـضى، الدوافـع نحـو الماديـة، ترجمـة محمد علي التسخيري، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط2، 1980م.

46. مطهـري، مرتـضى، المجتمـع والتاريـخ، دار المرتـضى، بيروت، 1413هـ 1993-م.

47. المظفـر، محمـد رضا، المنطق، مؤسسـة النشر الإسـلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

48. مهـران، محمد، ومحمد مدين، مقدمة في الفلسـفة المعاصرة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 2004م.

49. الواسـطي، علي بن محمد الليثي، عيون المواعظ والحكم، تحقيق الشيخ حسين الحسني البيرجندي، دار الحديث، قم، 1376هـ.ش.

50. اليزدي، محمد تقي المصباح، دروس في العقيدة الإسلامية، ترجمة عبد المنعم الخاقاني، دار الرسـول الأكـرم، بيروت-لبنان، ط8، 1429هـ-2008م.

51. اليـزدي، محمد تقي المصباح، النظرة القرآنيـة للمجتمع والتاريخ، ترجمة عبد المنعم الخاقاني، دار الروضة، بيروت، ط1، 1416هـ 1996-م.

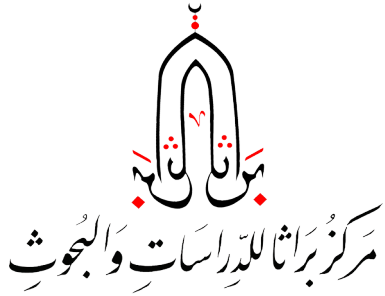

هو مركز بحثي مستقل غير ربحي، مركزه في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والاكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها ذلك الحراك الاجتماعي والانساني الكبير، الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية؛ ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجدة، سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

في هذا الكتاب

هل قرأتَ عن الإلحادِ، واللاأدريّة، واللااكتراثيّة؟

هل سمعتَ باسم الفيزيائيّ الملحد ستيفن هوكينغ صاحب كتاب «التصميم العظيم»، أو عالمِ الأحياء التطوريّة الملحد ريتشارد دوكنز مؤلف كتاب «وهم الإله»، أو كريستوفر هيتشنز، صاحب كتاب «اللّه ليس عظيمًا، كيف يسمِّم الدين كلّ شيء؟» وهل قرأت تجربة أنتوني فلو ورحلته من الإلحاد إلى الإيمان وتأليفه كتاب «هناك إله»؟

لعلّك سمعت وقرأت عن ذلك، نتيجة الانفتاح على عالم الإنترنت والفضاء المجازيّ. مع أنّ الإلحاد ليس حديثًا، بل هو ممتدّ في التاريخ، لكنّه اليوم أشدّ حضورًا وأكثر فتكًا؛ لأنّه يدثّر نفسه بثوب العلميّة، ويدّعي الاستناد إلى معطيات العلوم الطبيعيّة كالفيزياء الكونية أو البيولوجيا أو علم الفلك... وقد أثّرت هذه الموجات في عقول بعض الشباب، وقصفت أذهانهم بالشبهات والمغالطات.

في هذا الكتاب سنضع الإلحاد المعاصر على مشرحة البحث، باعتبار كونه –من وجهة نظرنا– كائنًا ميّتًا، وسنقوم بتشريحه، وتحليله، لنكتشف أنّه لا روح فيه ولا حياة، لا يصمد أمام المنطق والعقل والعلم والفطرة.

• الدراسة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز •

مَركزُ بَراثا للدِّراسَاتِ وَالبُحُوثِ
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com
مدير المركز د. محمد مرتضى
009613821638